عبد المنعم محمد خلاف

العقل المؤمن

أو

الدين من طريق الفكر

الناشر
دار الكتاب العربي
محمد حلمي المنياوي

عبد المنعم محمد خلاف

العقل المؤمن

أو

الدين من طريق الفكر

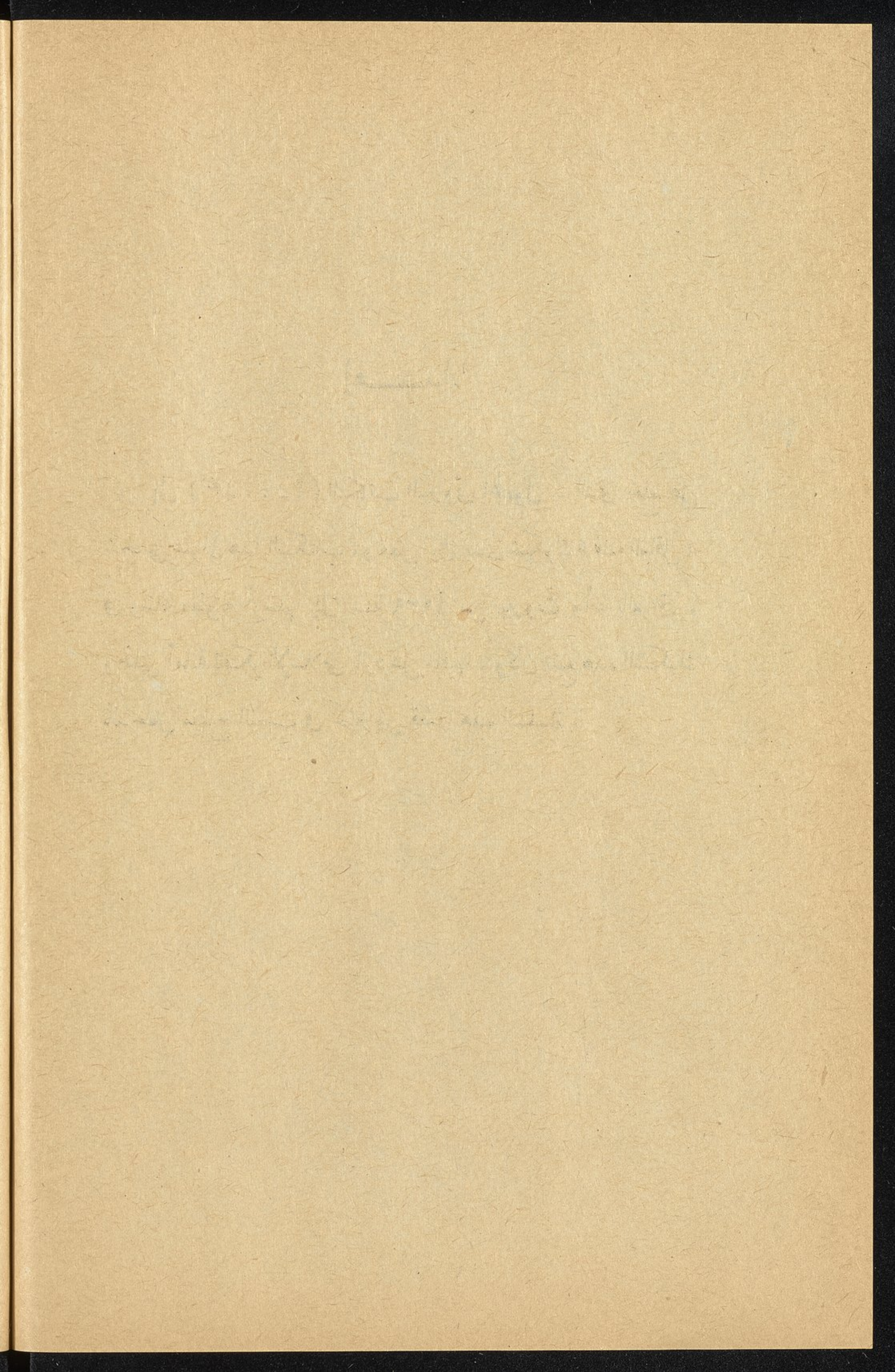


الطبعة الأولى

شعبان ١٣٧٠ هـ — مايو ١٩٥١

إهـــداء

إلى (محمد . . . ؟) الكاتب البيروتى المجهول .. الذى خلع على شخصى عنوان هذا الكتاب ، ونفض بين يدىّ شكوك « قلبه العاقل » فى رسالة مطوّلة أرسلها إلىّ سنة ١٩٣٩ من بيروت وأنا بالعراق ، وحمّلنى أمانة للفكر الإسلامى بالرد على مافيها ، وكان تتبع هذه الشكوك بالدحض مفتاح البحث فى كثير من قضايا هذه السلسلة .



بسم الله الرحمن الرحيم

بيـــان

هذا الكتاب هو الحلقة الثانية من السلسلة المعنونة [نحو أساس روحيّ للحضارة المادية] والتى أردت بها أداء واجب من واجبات الفكر الإسلامى الحديث فى التمهيد العقلى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية المنشودة .

وقد نشر أكثر بحوث هذه السلسلة فى المجلات الأدبية العربية ابتداء من سنة ١٩٣٧ . وأسجل هذا التاريخ ليقف مؤرخو الفكر ونقاد الحركة الأدبية العربية على منشأ دعوات زعم مُدَّعُوها أنهم مبتدعوها بعد أن حرّفوها وأحدثوا حولها ضجة من الدعاية المفتعلة ، حبًّا فى الشهرة المحرمة . . بل إن أحدهم — وهو عبد الله القصيمى النجدى — مؤلف « هذى هى الأغلال » لم يتورع أن يسطو على [أومن بالإنسان] ويملأ به ثلث كتابه ، وعلى مقالات (الحياة صادقة) ويبنى عليها فصولا طويلة من كتابه كذلك ، ثم لا يشير من قريب أو بعيد إلى من سبقه ، كما توجبه الأمانة العلمية ، وبعد ذلك يضع الجملة التالية على صدر كتابه « سيقول مؤرخو الفكر : إنه بهذا الكتاب ابتدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » و « إنه ثورة فى فهم الدين والعقل والحياة » . كأن مؤرخى الفكر عميان لا يتلمّسون مصادر الآراء !

ولما لقى صديقنا الأستاذ سيد قطب ليسأله رأيه فى كتابه ، سأله الأستاذ قطب بدوره : هل اطلع على [أومن بالإنسان] ؛ فأنكر اطلاعه ! مع أن الكتاب كان قد طبع سنة ١٩٤٥ وكان أغلب فصوله قد نشر هو ومقالات

(الحياة صادقة) فى مجلتى الرسالة والثقافة فى مدى أربع سنوات قبل ذلك ، وليس من المعقول ألا يطّلع (القصيمى) على هاتين المجلتين طول هذه المدة ، بل الواقع أنه قابلنى مرة فى ندوة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة قبل طبع الكتاب ، وعند ما عرف اسمى سألنى : ألا تزال تؤمن بالإنسان . . ؟ وناقشنى مناقشة عابرة حول الموضوع ، وأظن إذا لم تخنّى الذاكرة أن باحثاً نجدياً شهد هذا الحديث لعل لقبه الأزهرى أو المزروع . .

فانظر وتأمل تجاهل القصيمى حينما سأله الأستاذ قطب بعد معرفته الأكيدة لشخصى وفكرتى ، ومناقشته لى ! !

وحينما عقبت فى مجلة الرسالة فى ١٩٤٦/١١/٢٥ على مقال الأستاذ قطب عن القصيمى ومؤلفه فى مجلة (السوادى) ، لم أذكر مقابلتى للقصيمى إذ لم أتذكر أننى قابلته تلك المقابلة السابقة وأنه سألنى سؤاله المذكور ، لأن اسمه لم يعلق بذاكرتى ، فلما رأيت شخصه فى (دار الحكمة) بعد صدور كتابه وتعليقى على نقد الأستاذ سيد ، لم أعرف أن ذلك الشخص هو صاحب هذا الاسم وذلك الإثم ! حتى عرفنى به الأستاذ الصحفى محيي الدين رضا ، وقد حسب أننى عرفته وتجاهلته غضباً منى لفعلته . . فقلت له : أهو هذا ؟ واتجهت إليه وقد تذكرت مقابلتنا فى ندوة اللجنة وزاد عجبى ، وقلت له : أأنت هو ! ومع ذلك تنكر ؟ وذكرته بمقابلتنا وسؤاله لى ، فأُسقِط فى يده وأخذه الحرج حتى بدا زبد شدقيه . .

***

غير أن الفكر الحرام كالمال الحرام . . . جذوة من النار تأكل الحلال وتذهب به . . وقد ذهب السطو على فكرتىْ الإيمان بالإنسان وصدق الحياة بالفكر الحلال فى ذهن القصيمى ، إذ انحرف بهما انحرافاً شديداً خرج بهما عن مجال التأييد للإيمان ، والسعى لجعله أساساً لهذه الحضارة المادية المجنونة ، وهو ما أردته بهما ، إلى مجال الهدم والتجريح والإزراء واليأس والانطلاق الخابط . .

وكان هذا الانحراف طبيعياً لأن الفكرة ليست منبثقة من منبعها الأصيل ، فلم تخرج بهالاتها من الإشراق والإخلاص ، وضوابطها من الثقافة العلمية المادية والروحية التى تعصمها من الزيغ والشطط ، وإنما خرجت قلقة مضطربة تحاول أن تتجرد من أثوابها وألفاظها الأصيلة ، ناظرة إلى الشهرة المحرمة . لا إلى وجه الله والإنسانية ، تفتعل الضجة افتعالا وتنادى على صاحبها فى الأسواق وتستجدى التقريظ بالطواف فى النوادى والمجالس ، ويهمها ثناء الملاحدة والمتعصبين ضد الدين عامة والإسلام خاصة ، وقد أهدى مدّعيها نسخة من كتابه إلى كل أديب تقريباً فى مصر والأقطار العربية إلا واحداً ! هو طبعاً صاحبها الأول . . .

ومع ذلك أشعر بقدر غير قليل من السرور إذ أجد الأفكار التى عشت مدة طويلة فى محراب الحق لاستخلاصها وتجديد الفكرة الدينية بها فى هذا العصر الفاجر المجنون ، معتمداً على العقل والعلم اللذين هما أقنوما إله هذا العصر فيما يزعم الزاعمون — أجدها قد لقيت صداها وآثارها حتى فى ذهن عالم من علماء نجد ! وهُم مَن همْ فى محافظتهم ، فما لبث أن اختطفها وانطلق

ثائراً بها ينادى : إنها ابتداء رؤية الأمم العربية طريق العقل ، وإنها ثورة في فهم العقل والدين الحياة . . .

ولو لم يكن قد انحرف بها إلى نتائج باطلة ليست لها ولم أُرِدْها ، لتركتها له ، علماً منى أن النقد اليقظ وتأريخ الفكر سيُرِدّ كل شىء إلى صاحبه ويصرف زعم الدَّعِىّ إلى الأصيل . . .

وأحسب أنه قد آن الأوان لسن تشريع يصون الملكية الأدبية ويردع لصوص الأفكار ، وإنهم لكثير . . .

القاهرة فى يوم الجمعة { ٢٩ من رجب سنة ١٣٧٠
٥ مايو سنة ١٩٥١ }

عبد المنعم محمد خلاف

مقـــدمات

مسألة المسائل

المسألة الدينية هى أعظم مسائل الحياة قيمة وتشويقاً وإثارة للجانب السامى فى النفس البشرية وللتفكير والرجاء والرغبة والرهبة والإحساس بالجمال، وقد كانت وما زالت محوّر بحوث العقول المفكرة وعقول الجماهير، لأنها تتصل بأعماق الفطرة ويترتب عليها قيمة الحياة وقِيَم الحق والخير فيها، ومعرفة الغاية منها. وما برحت « ما نحن ؟ وما الكون ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟ وماذا وراء الطبيعة ؟ وما هى الغاية ؟ » أسئلة خالدة تثيرها القوى المفكرة فى كل فرد، تضل الجماعة البشرية أو تهتدى حسب توفيقها فى الإجابة عليها.

وهذا الكتاب يعالج المسألة الدينية ببيان جذورها فى حياة الفكر.

والناس فى حاجة ماسّة إلى الحديث المعقول عنها فى كل العصور وخاصّةً هذا العصرَ المادى، إذ فيها أكبر معين لبناء الحضارة المادية على أوتاد ثابتة من الإيمان بِقِيَم الحق والخير والجمال، ولتلطيف عنفها وقسوتها، إذ منشأ ضلال الحياة الراهنة هو ترك الاستعانة بالهدى المجرَّب من هذه المسألة.

وقد ثبت أن من الخير المؤكد للناس أن يُحكَموا بحكومة العقل والوجدان والضمير من داخل نفوسهم قبل أن تحكَم أجسامهم وظواهر أعمالهم بالقوانين، لأن حكومة الوجدان راعيها المطلعُ فى كل حينٍ على خائنة الأعين وما تخفى الصدور، بينما حكومة الأجسام لا ترى إلا ما فى الشوارع، ولن تستطيع أكثر من هذا . . . ولن تقوم حكومة العقل والوجدان إلا فى ظلال الدين الصحيح

الكفيل بإقناع الناس فيما بينهم و بين أنفسهم بقيم الحق والخير والفضيلة ، و بقبح الباطل والشر والإثم والجريمة .

ولن يَغرِس صفات النبل والشرف والرفعة فى النفوس التى لا تتيح لها بيئتها وحالتها المعاشية أن تعرف تلك الصفات إلا الدين ؛ فهو يرفع بعزة الإيمان بالله وآدابه كثيراً من الوضعاء فوق مَصافّ نفوس الشرفاء والسادة بالنشأة ، ويعلّم كثيراً من الجهلاء ويجعل عقولهم تحتك دائما بالمسائل الكبرى فى الحياة والاجتماع ، و يورث النفوس عموماً تطلعاً للأمجاد وأشراف الأمور وحمل أمانات الحياة بكفاية وشعور بالمسئولية ، و يبغّضها فى سَفْسافها وحقيرها .

ومن الآثار الكبرى للدين تدريبه الفكرَ على أن يعطى لكل شىء قيمة ، ويجعل التماس الأسباب أساساً لاتجاهات الحياة وتعليلات شئونها . وأرى الرجل اللادينى لا أمانة له لأن الكون كله فى نظره لا قيمة له .

ويخطىء من يظن أن الحياة النفسية للفرد ، والاجتماعية للأمة يستطاع قيامها بدون هذا العامل الأساسىّ الذى قامت عليه الحضارات النفسية والمادية الناجحة . فليُقصِرْ من يريد سلخ الناس عن فطرة الله التى فطر النفوس عليها ؛ فغاية سعيه ضلال ، وجهوده هباء ، و يأبى الله إلا أن يتم نوره ، وقد خلق البشرية لاجتلاء هذا النور حتى يتبين لهم أنه الحق .

وهــذا العصر زاخر بالدعوات إلى أفكار واتجاهات مختلفة وقد تكسرت عن أغلب الناس عقائدهم الموروثة ، واستقبلوا عهداً من الحرية الفكرية التى تتناول كل المسائل بالفكر ومقدار المصلحة ، ولن ينجح فى هذا العصر فى الدعاية لمذهبه الفكرى والمادى إلا من تسلح بالحجة والبرهان وقلل الاعتماد على الطاقة العاطفية التى تعتمد عليها أغلب الأديان في الدعوة إلى

الإيمان المستسلم الذى يستثار بالمؤثرات الشعرية الوجدانية . أما فى الإسلام فالطاقة فى الإيمان عقلية فى أكثر أحوالها تعتمد على الرشد والنقد والمحاكمة . وقد أمدها هذا العصر العلمى الأخير بمدد لا يفنى من الحجج والبراهين ، وأيدها روح الشك الذى يأبى أن يغفل الفكر فى كل شأن .

فلندخل الكون والدين بالفكر الرائد الناقد . .

ولنبدأ على هداه حياتنا من جديد !

العقل الإسلامي والمسألة الدينية

وأريدُ به ذلك العقلَ الذى أثّرت فيه الأفكار والعقائد والأخلاق التى فى أصول الإسلام ، وواجه النفسَ والحياة والاجتماع والطبيعة وما وراء الطبيعة بتلك الأفكار والعقائد والأخلاق .

واجهَ الطبيعةَ بتلك الفكرة الواضحة عنها ، وهى ابتداؤها على يد الإله الواحد بإرادته وعلمه وتدبيره وإحكامه ، وسيرُها برعايته وتسديده ، وانتهاؤها على يده ، وإعادتها فى صورة أخرى بمشيئته وتدبيره .

وواجه ماوراء الطبيعة بذلك التفكير الواقف عند حدود الطبيعة ، المؤمن بأن وراءها عوالم وأكوانا لو رزق الإنسان قوى مدركة أخرى لأدركها ، وبأن إله الطبيعة وما وراءها إلهٌ واحد .

وواجه الاجتماعَ بذلك الخلق الوصى عليه ، الحارس اليقظ القائم على مصلحته ، المتفانى فى خدمته ، المجاهد فى سبيل إعلائه ورقى شئونه ، المدافعِ عن حُرُماته وحقوقه وواجباته بدمه وماله وفكره وعلمه ، العفيفِ عن دناياه ونقائصه ، الصابر على بلواه ومحنه !

وواجه النفسَ بتلك السيطرة التى تحملها على الصفاء والنقاء ، وتجنبها الفجور والثُّبور ، وتصلها بأعماق الخير ولُباب الحق ، وتحملها على الاستجابة لجمال الحياة والإعراض عن قبحها .

فأين هو ذلك العقل العزيز الكريم ! هل بقى منه إلا صور وأشكال

جافة كما يبقى الحطب من الربيع ! لقد ذهب التعليم والتهذيب الإسلاميّ القديم الذى كان يعرف به أكثر المتعلمين الأقدمين أصول الإسلام وغاياته واتجاهاته ، وحلّ محله هـذا التعليم الفجّ الذى لم يتعرف إلى الإسلام ليجعله على الأقل جدولا من جداول المعرفة التى تصبُّ فى أذهان المتعلمين ، ولم يتوجه بعقولهم إلى مِشعاله ليروا الحياة وما وراءها على ضوئه . . .

وقد ضمنى و بعضَ الأصدقاء المثقفين ثقافة عالية ، الذين لم يدرسوا عقائد الإسلام ، مجاس ، وكان محور الحديث المسألة الدينية ، فوجدتهم يناقشون فى « التوحيد » ولا يمنع بعضهم التعديد ! . . ووجدت بعضهم لا يرى للإسلام ميزة يتفرد بها بين سائر الأديان حتى الوثنية منها . . . ووجدت بعضهم يسوى بين المتدينين جميعاً موحدين ومشركين ووثنيين و يجعلهم جميعاً قبيلا واحداً . . .

ولهؤلاء عذرهم ، برغم النكبات التى حلت وتحل بهم و بأمتهم من هذا الجهل والخلط . . . لأن وزارات المعارف الإسلامية — وخصوصاً فى مصر — التى تشرف على تربية أكثر الناشئين فى البـلاد الإسلامية لا ترى من الإسلام إلا الرسوم والأشكال تحشرها فى مناهجها حشرا ، أو تلحقها بها ذيلاً غير كريم المظهر ، ولا أصيل المخبر . . . أما « نقطة البدء » فى الإسلام وعقدة ثمرته ، وصورة عقائده التى أشرنا إليها فى أول المقال ؛ تلك التى تَرَكَّزَ جِهاد رسول الإسلام فى توطيدها فى عقول الناس واحتمل من أجلها أشد الأذى ، وتدور على محاورها آيات القرآن ، فتلك مسألة تافهة لا تستحق الإكباب عليها والإلحاح فيها . . .

***

ونتيجة لما تقدم قد استسلم أكثر المتعلمين العصريين إلى التفكير فى الحياة الدنيا وحدها ، أو بالأحرى التفـكير فى شئون محيطهم الضيق منها ، وصاروا

لا يجرءون على رفع رءوسهم للتفكير فى المسألة الدينيـة ، لأنهم لا يجدون فى ثقافاتهم لمشكلاتها حلا يطمئنون إليه . . .

وقد قال لى بعضهم فى ذلك المجلس : إنه يعتقد ألا داعى للتفكير الآن فى تلك المسائل الدينية القديمة ، لأنها لا تتصل بهـذه الحياة ، ولأن العقل لا يصل إلى تمييز الحق والباطل منها ، و إن الواجب فى حالة التدين أن يؤخذ الدين بدون تفكير . . .

وأعظم ما أصيب به الدين أن صارت الفكرة العامة عنه على هذا النحو ! وأن قيمته فى بعض الأذهان انحطت عن قيمة أى شأن مادى ، كأن البشر يستطيعون أن يستغنوا عنه ، أو كأن شأنه أهون من شئون المعارف الأخرى والتجارة والزراعة والملاهى وما إليها من شئون العيش المادى التى يملأ الناس بها بيوتهم ومعاهدهم وصحفهم ونواديهم . . .

إن التفكير الدينى يجب أن يكون السابق لأى تفكير آخر ، لأنه هدى الطريق ، ومسائله لا يغلق فكره وقلبـه عنها إلا كل سفيه مبذر فى قيم الأشياء ، لا يدرى قيمة ما فى السماء والأرض من الأخبار والأسرار والعبر ! ولا ما فى قدومنا إلى الدنيا وخروجنا منها بدون اختيار من دواعى دهشة وحيرة هما باب التعبد[1] !

لقد كانت الإنسانية القديمة أصدق من الحديثة إحساساً ، وأحيي شعوراً وأدنى إلى تقدير الأسرار ، وأشد استجابة للحياة حين شغلتها المسألة الدينية فى جميع مواقفها وجعلتها تنشئ جميع شئونها المادية ومعها شعورها الدينى ،

---

(١) انظر سر الدهشة والحيرة والتعجب فى [أومن بالإنسان] فصل [الباقى من صانع الحضارات الفانى] .

وجعلتها تملأ الأرض معابد لإرضاء ولوع النفس بالتفكير فى تلك المسألة ، ولإخضاع أغلب مسائل الحياة الدنيا للنظرة الدينية ، وللصدور فى جميع الشئون عن وحيها وسيطرتها . . .

أجل ! كانوا أصدق إحساساً بهذه الحياة حينما جعلوا نصيبا موفورا من تفكيرهم لما قبلها ولما بعدها ؛ إذ أن الذى يرى هذا العجب فى الدنيا وشئونها لايملك حبس تفكيره عن الذى كان أمامها والذى يكون وراءها . . . وإن الذى يقدر هذه الحياة قدرها لايملك أن يسمح لفكره أن يقول بفنائه هو فناء لارجعة بعده ، أو فنائها هي فناء لا رجعة بعده .

وإنى لأعجب كيف يبدأ أكثر المتعلمين صباحهم وكيف يختمون مساءهم وهم فى غفلة عن التفكير فى مسائل هذا الوجود وفى حياتهم ومماتهم ! .

وإنى لأعجب كذلك كيف يسمح بعض المتعلمين لنفسه أن ينظر إلى آباء الإنسانية من الأنبياء والأصفياء ، الذين وجدت فى مواريثهم وجهادهم أعظم عزاء وأعظم عروة وثقى أمسكت وتمسك بها فى تيارات المجهول ، نظرة ازدراء وتحقير . . . ثم ينظرون إلى أى صانع أرضاهم صنعه المادى فى شىء صغير نظرة إعجاب ! ! .

وكان الإنسان القديم أشد شعوراً بنفسه ، وذَوْقاً روحياً لما حولها ، وتقديراً لخالقها حين علم أنها محاطة بتلك العناية الفائقة وسط أهوال الحياة ، وكان ظنه برب الكون يسمو إلى درجة الصداقة والحب والرهبة والاعتماد فى شئونه على معونته .

وجميع شئون الناس المادية مطردة السير ، وموقفهم من جميع الشئون الآن معقول إلا فى المسألة الدينية . . فقد أهملوها إهمالا لست أعلم له سبباً مقبولا ،

إلا أن يكون هناك قوة شريرة خفية ، تصرفهم وتشغلهم عنها ، هى مايسميه الدين (الشيطان) ، وإلا فماذا يجعل عُبَّاد الحياة الفانين فى عشقها يهملون الاعتقاد بأنهم سيحيون حياة أخرى تمتد بها آمالهم فى السعادة ؟ ! . وما الذى يجعل عشاق الجمال والحق لا يُرضون نزعات حبهم للجمال والحق فيلجأوا إلى الإيمان بما يقول الدين من أن هناك فى حياة أخرى عقابا صارماً للذين يعتدون على الجمال والحق فى هذه الحياة الدنيا ؟ . وما الذى يصرف محبِّى العدالة عن الأخذ بأعظم أسباب إقرار العدالة ، وهو توطيد عقيدة فى القلوب تحتم الأخذ بأسباب العدالة ؟ ! . .

أغلب الناس يألم من الشر ؛ ولكن ما بالهم يفرون من الانتظام فى جيش أعظم قوة تقاوم أسباب الشر والإثم والألم و تخففها ؟ ما بالهم لا يقيمون حياتهم على ما يضمن راحتهم فيها ؟ . هل لذلك من علة سوى قوة الشر التى يجسمها الدين و يسميها الشيطان ؟ .

يقولون إنها غرائز الشر ، وهى قوة من قوى النفس ، فالصدور عنها والطاعة لها لا ضير فيهما ، لأنهما استجابة[1] لبعض القوى الطبيعية فى النفس... وفى هذا القول أول دفع إلى الإيحاء بالشر وجعل اقترافه فلسفة . . . وسواء كان الشر من قوى النفس أم قوة خارجة عنها ، فالعبرة بالنتيجة لا البواعث . غير أن الدين كان أحذق وأعرف بمداخل النفس و بواعث قوى الخير فيها و إثارتها إلى الكفاح ، وأقرب إلى تنزيهها حين جسَّم لها قوة الشر وجعلها قوة مدركة وعَدُوًّا غريبا عنها ، وخلع اسماً على شخصيتها المستقلة التى يكاد يراها قلب الإنسان و يحس يدها تغمز عليه وتفسد اتجاهه للخير . . .

---

(١) وهذا من مقالات المذهب الهدام الجديد المدعو [الوجودية] .

ودائما يقف هذا « الشيطان » موقفا مقابلا لموقف الخير والطاعة والسير مع قوانين حفظ الحياة و إطراد نموّها وارتقائها فى الطبيعة وفى الاجتماع ، فحين كانت طبيعة الحياة الإنسانية فى « آدم » هى اللهفة على الخلود والاستمرار فى حياة « الجنة » التى لاظمأ فيها ولا جوع ولا عُرْىَ ولا شقاء ، زيَّنَ « الشيطان » لها مخالفة قوانين الحياة فى تلك الجنة سعياً وراء الخلود . . . « فوَسْوَسَ إليهِ الشَّيْطانُ قَالَ يا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَيَبْلَى » وأوقعه فى الإثم ليخرجه منها .

وحين صارت لهفة بعض النفوس البشرية الآثمة الجاحدة الظالمة أن تفعل ما تشاء وأن تحظى بمشتهياتها وترضى نوازع الإثم والشر فيها ثم تفنى فناء لارجعة بعده ، فِراراً من الحساب والعقاب ، وسوس لها بالفناء المطلق ليمنعها من العودة إلى الجنة . . . وليمهد لها سبيل الشر على حساب العدم الأبدى بعد هذه الحياة . . .

السعى الآثم إلى الخلود المطلق هو ماوسوس به الشيطان لآدم حين كان يتعلق بأسباب البقاء فى الجنة ليخرجه منها . . والظن الآثم فى الفناء المطلق هوما يوسوس به الشيطان لآدم حين أخرج من الجنة على ميعاد للعودة إليها ، ليحول بينه و بين العودة إليها .

فهل من طبيعة كائن كريم عاقل هذا التناقض ؟ ! أم أنها مكيدة عدو غريب عن النفس البشرية حاقد شديد الفتنة ، ضارى الفطنة !

الذى ضيّع الدّين

ما رأيت شيئاً أضر الحياة وأضر الدين وحال دون شيوعه فى الناس مثل فهمه على أنه ليس ركناً بسيطاً هيناً من أركان الحياة اليومية ، بل شيئاً بعيداً عن متناول عقول أكثر الناس ومتناول جهدهم المحدود وإحساسهم بالحياة ، لا يصل إليه إلا الموغلون المنقطعون عن الحياة المادية ...

وينبغى لدعاة الدين وقواد الاجتماع ألا يخطوا خطوة عامة فى رحاب الفكر الاجتماعى إلا وهم مقدرون أن جمهور الإنسانية يستطيع أن يخطوها وراءهم .

وقد كانت نتيجة هذا الفهم وذلك الإيغال أن حياة أكثر الناس انفصلت عن حياة الدين واتجهت إلى مجرى المادية الصماء — وهو المجرى الظاهرىّ وحده — من غير أن يصحبها الروح السامى الذى يليق بعظمة تفرعاتها المادية وتشقيقاتها .

ولو أن الدين نظر إليه وفهم على أنه موقف طبيعى لازم من « روتين » الحياة اليومية ، كالأكل والنوم والرياضة والعلم ، ولو أنه سايرَ حياة المجتمع ، وفُهِم على أنه « ركن مادى » فيها لا بد أن تقوم عليه كما تقوم على غيره من دعاماتها كالقانون وحفظ الأمن مثلا ، ولم تلتصق به نزعات التصوف والانطلاق الشعرى المغرِقين ، وتصويرُ الإنسان فيه فى موقف الإفناء والإنكار للنزعات المادية التى تستلزمها الحياة بالجسد ، والخروجِ من الدنيا بالسهر والجوع والزهد واستمراء الآلام قبل الخروج منها بالموت . . إذاً لسارت الحياة الإنسانية فى تناسق بين جانبيها الروحى والمادى .

وليس الزهد فى الحقيقة ترك الطيبات ؛ و إنما هو التفطن إلى طعم زوالها وفنائها أثناء الاستمتاع بها لمنع الاغترار والركون إليها .

ولو علمنا أن الحياة صادقة أصدق من تلك النزعات الشاذة التى تجلت فى أفراد من المتشائمين ، من كل من طلّق الدنيا ألماً منها أو فطاما للنفس عن لذاتها الطيبة ، لتغير الموقف العام ، فإن الحياة الإنسانية فى مجراها العام أخذت الإنسانية كلها ، ونقلتها إلى رحاب الكرامات والتسلط والتسخير عن طريق العلوم الموضوعية ومكارم الأخلاق العملية لا الاستغراقات الذاتية الضيقة المعرضة عن الحياة . .

ولا يغرّنّنا من شذوذ أولئك الصوفيين المغرقين ما تركوه من كلام شعرى مزوق جميل فى طيوف وأشباح وأصداء لوجداناتهم المحرومة المولهة التى تركت طرق الحياة الواضحة ، وأرادت أن تدرك الله الأعلى بعقولها المحدودة ، فكانت النتيجة الحتمية لذلك المطلب هى بلبلة الخاطر وخفاء البيان واضطراب التفكير . . .

إن الحياة المادية العلمية الظاهرة هى الحكم فى حياة الجماعة ، وهى الأفق الأول الذى أراد الله العظيم أن تتجلى فيه أسرارنا ونتائج خلقتنا ، وثمرات جهادنا فيها ثمراتٌ دائمة ثابتة ، يراها أطفالنا وجهالنا كما يراها علماؤنا وفلاسفتنا .

وأنا مؤمن بالإنسانية ذات المنطق العملى المستمد من الطبيعة ، ناشدٌ كمالها عن طريق تكميل سيطرتها على الطبيعة و إدراكها للنفس إدراكا علمياً وتحكمها فى العمل تحكماً صالحاً .

ومن الذى سار وراء الشذّاذ من الصوفية والمتشائمين وأخذ أخذهم فى الحياة ؟ إنهم أقل عدد ، ومن صالح الأرض أن يكون ذلك ، إذ لو طاوعهم

الناس لعطلت الحياة فى الأرض ، ولم تتحقق الأعمال البارعة التى للإنسان فى المادة وأسرارها .

* * *

والتصوف بمعناه العملىّ شىء سام عظيم فى رياضة الخلق وتطبيع الأعصاب على السمو والخير وإيقاظ الضمير ، ولكنه بمعناه الشعرى الذى نراه فى شعر بعض القوم ليس أخلاقاً ، وإنما هو أحلام وتأملات مستغرقة حادّة للخلاص من الجسد لرؤية الحقيقة العظمى والخروج من نطاق الأرض لرؤية ما وراءها ، وهؤلاء قد لا يهتمون بالأعمال والأخلاق ، كالحلّاج وغيره ؛ فواجب أن ننظر إليهم لا كرجال دين يسنون طرقا ليسير الناس عليها ، وإنما كشعراء استهوتهم المعانى الدينية فأسرفوا فيها ، واستغرقوا وانطلق وجدانهم فيها كما استغرق أبو نواس فى الخمر وبشار فى الملذات الحسية . . .

وقد يُنظَر إلى معانيهم على أنها انطلاقات فى « فن الدين » أو موسيقى فى جوّه ليست ذات محصول . . . وقد ينظر إليهم رجل الدين العالم العملى على أنهم صناع أحلام استهوتهم إلى غير الطريق الذى تسير فيه الجماعة . وكل فتح لهم تستطيع الإنسانية أن تنتفع به هو « صواب الأحكام » التى أرسلوها فيما أثر عنهم من بيان ؛ لأنهم أطالوا التأمل وأدمنوا تقليب النظر فى وجوه الأشياء المختلفة . وهذا لا يُيَسَّر لكثير غيرهم .

ولم يأت وصف لله تعالى على لسانهم ولسان أى مخلوق بما يخرج عن نطاق عمله تعالى وصفاته الممثلة فى الطبيعة التى تدرك بالقوى الواعية وبالحواس .

نعم قد تشرق عليهم لمعات من الأذواق الغريبة عن الحياة ومن المشاهد

الغيبية ، ولـكن لايستطيعون إظهارها ، لأنها يضيق عنها نطاق النطق كما يقرر الغزالى .

وإنى ما قرأت بيان صوفى إلا وجدته خيالا شعرياً جميلا ، إن كان صاحبه قديراً ، ورديئاً إن كان صاحبه قاصراً كليل الذهن ، وكثيراً ما أظفر بمثله من بيان أهل الدنيا السائرين على ظاهرها .

***

غير أن الإنسانية إن كانت طبيعية إلى حدٍّ ما بسيرها هكذا ، فقد أساءت بإهمال جانب الروح ، باعتباره دعامة أساسية فى الحياة ، ذلك الإهمال الشنيع .

وربما يكون ذلك الأمر محتملا فى العصور السالفة ، عصور القصور والطفولة ، ولـكن الآن يجب أن تدرك أنها بلغت دوراً لا يصح أن تسكت فيه على إهمال الجانب الروحى فى حياتها باعتبار أنه « ركن حيوى » ودعامة نظامية لحياتها المادية ذاتها . والحمد لله قد تحول كثير من أحلام الروحيين القدماء إلى أخلاق عملية عامة .

وتظهر قيمة القرآن العظيم حين يأخذ المجتمع كله بمنطق وسط صالح للجماعات ، فهو كتاب العدل بين قوى الإنسان ، والاعتراف بالحياة المادية والحياة الروحية كأساس واحد لازم للحياة الإنسانية .

والعمل هو رُوحه ، لا الأمانىّ الشعرية ، ولا الأغانى الدينية ولا التماس « حسن التعليل » ولا الأماديح التى تتملقُ و يتهرب بها صاحبها أو يتشفع بها

ويعتذر عن إهمال الأعمال ، كتلك المعاذير التى يتخذها الناس مع رؤسائهم الدنيويين .

والثواب والجنة الحسية والحسنى والرضا والرحمة والاحترام والخير لذى الخير هى من أدواته كذلك فى الدعوة ومجازاة الفضائل والطبائع الكريمة، لأنها منطق الغرائز الصالحة والأخلاق المثلى . وكل أخلاق القرآن هى أخلاق أبناء الحياة بقسميها : العاجل والآجل ، الصالحين لعمارة الأولى ونموها ، والعاملين لحيازة الأخرى والرفعة والرفاهة الخالصة فيها .

وكل عقائد القرآن واضحة مأخوذة من منطق الانفصال بين الله والطبيعة و بين الإنسان والله تعالى — فلا حلول ولا وحدة ولا اتحاد — ، ومن موقف الخلافة فى الأرض خلافة واسعة والتدخل فى شئونها جميعاً ، لا التقليل من شأنها والهرب من مجابهة فتنتهـا كدار امتحان وكفاح وابتلاء : موقف الاعتراف بقيمة الجسد الإنسانى وسمو الروح الإنسانى ووجوب الجمع بينهما لصلاح الحياة والفكر .

فَلْنَدِن لله بالحياة ، ولنتعبد بها هى ذاتها ، ولنتخذ منطقنا من سننها التى لا تتبدل وحقائقها التى لا تلتوى ، لأنها منطق الله ربنا وربها ، وما عرفنا الله إلا منها . فكيف نهملها ؟ وكيف نجهلها أو نجهل عليها ؟ فيها قِوامها ، ومنها دينُها ! .

ولنَعْرض أقوال الرجال على موازينها قبل الأخذ بها فى تسليم وغرور . . . ولنحذر أن نعكس الأمر فنعرض أمر موازينها على أقوال الرجال ، فإن أقوال الرجال متغيرة متناقضة وأقوالها هى ثابتة لا تتبدل ! .

ولـكل عقل موهوب الحق فى الاتصال بها ، والاحتكاكُ بقوانينها ؛ ليـكون من وراء ذلك اتصال مباشر بعقل الوجود ! . .

وقد صارت الحياة تغزو بصدقها قلب الإنسان وتستهويه وتبعده عن الخوف والوجل من القرب منها ، وجعلت أبناءها المجاهدين الشجعان هم السادة ، وتركت الفارين منها فى خوف ووجـل يئنون تحت أثقالها وهم يحسبون أن أنينهم هذا شعر ونشيد وحكمة ! . . وما ظفر فيها بالحق إلا من أحسّ بها واقترب إليها و بَعُدَ عن أساطير الأولين من المرضى والفارين الذين حرموا من الإحساس بعنفوان شبابها يفيض فى كيانهم . . .

تطورٌ واجبٌ في فهم الدين

من الخطأ فى هـذا العصر أن نجعل محور الحديث الدينى هو المحور التقليدى السابق الذى يدور العقل به حول الصورة القديمة للكون فى عقول القدماء تاركين النظر إلى الوضع الجديد لهذا الكائن الإنسانى الذى ابتدأت قدرته وعلمه يحلان محل آلهة الخرافة عند القدماء .

فلقد كان منطق العجز والألم والجهل هو الذى يسيطر على عقول أكثر الإنسانية إلى ما قبيل هذا القرن ، بل إلى ما قبل الربع الثانى منه ، وكان هذا المنطق يوحى بالتشاؤم والنظرة السوداء إلى الحياة والسخط على ما فيها من سدود وقيود ؛ وكان الدين حينذاك بلسما يبرد الجراح ، وعزاء يخفف وقع الآلام ، وطوق نجاة تتعلق به الأرواح الغريقة لتصل إلى شط الطمأنينة والسكينة لحظات لا تلبث أن تأخذها بعدها الحوادث اليومية إلى اللجة فتضرب فيها بأكفها الصغيرة الهزيلة .

أما الآن فيجب أن يكون منطق القدرة والعلم والراحة التى جلبها العلم هو الذى يسيطر على عقول الإنسانية ويوجهها إلى الله وإلى الخير ، ويوجهها إلى التأمل العميق فى هذه القدرة والعلم اللذين صارت تتصرف بهما فى حياتها ، وإلى التأمل أيضاً فى هذا الوضع الحر الذى تتمتع به بين الكائنات المقيدة ، والدورات الأبدية المكررة .

وإنى أكرر — ولا بأس أن أكرر ما دمت فى صدد بسط دعوة —

أن الإنسان صار له من القيمة والاعتبار ما يوجب عليه أن يفكر فى نفسه ووضعه بعد أن صار عاملا عظيما من عوامل التكوين والتخريب فى الكون المادى .

وإذا كنا لم نعرف الله رب الكون ونؤمن به إلا عن طريق ما نراه من مخلوقاته وما فيها من إبداع وتنويع وتفريع ، و إذا كان القرآن الكريم ، وهو أعظم بيان دينى عن الله ، لم يأت بأى صفة له تعالى إلا وهى منتزعة من فعله سبحانه فى هذا الكون ، إننا حينئذ لابد لنا من الاستئناس بهذا فى الاستدلال على ما للإنسان من قيمة خطيرة فى الأرض وفى الكون المادى كله بعد أن صار عاملا عظيما من عوامل التكوين والتخريب والتنويع والتفريع فى عالم المادة والحركة والسرعة والاتصال رغم الأبعاد والمسافات .

وفى رأيى أن أعمال الإنسان الآن إنما هى تفسير لما آمنا به عن صفات الله وأعماله : فقد كانت عقول أكثريتنا القاصرة لاتفهم أن أمور الله فى التكوين والتخريب والعلم والاتصال بمخلوقاته إنما هى قوله للشىء : « كن » فيكون . وقد كانت عقول قدمائنا حتى عقول بعض الأنبياء لا تدرك عمل الله سبحانه فى التكوين والإحياء وتتوهمه سبحانه خاضعاً فى عمله للوسائط والأدوات والكيفات المادية ، فكان بعضهم يسأله : « رَبِّ أرِنِى كيف تحيي الموتى » ، « أنَّى يكونُ لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغتُ من الكِبَرِ عِتِيًّا » ، « أنَّى يكونُ لى ولد ولم يَمْسَسنى بَشَرٌ » . وهكذا كانت عقول البشرية لا تدرك أن الله الذى خلق هذا العجب الذى نراه من لاشىء ، لايجوز أن يكون مقيداً بقوانينه التى هو واضعها ، وأنه لا شك يستطيع أن يخلق عجباً غيرها إذا أراد تغيير سننه فى نشأة أخرى ،

وأنه إن خرقها فى حادثة جزئية فذلك استثناء يشير إلى القاعدة وينبه الأذهان إليها من تخدير الأُلْفة والاعتياد والذهول .

فلما وصلنا إلى درجة من العلم والقدرة تتيح لنا أن نقول لكثير من الأشياء « كونى » فتكون بسرعة البرق واللاسلكى والكهرباء بعد أن نهيىء لها قوانينها و نتخذ لأبوابها مفاتيحها ، فلا يجوز حينئذ أن يخفى علينا تفسير قول الله : « إنما أمرهُ إذا أراد شيئاً أن يقولَ له كن فيكون » إذ أننا على عجزنا وضآلتنا ومحدوديتنا استطعنا أن يضىء الطفل منا مدينة بضغط أصبعه على مفتاح كهرباء فيُطلع فيها شمساً ، وأن يجرى أنهاراً من الماء فى بيته بفتح صنبور ماء ، وأن يتصل بمن يريد وبما يريد فيراه ويسمعه ويسمع أنفاسه ويرى حركاته من أقصى الأرض بالتلفزيون والتليفون والراديو والرادار ، وينسف مدينة عظيمة بقنبلة ذرية كالبيضة أو كالفولة ، وأن يحارب أعداءه بالطائرات والدبابات التى تسير باللاسلكى فيجعلها تكر وتفر وتقبل وتدبر فى ميادين الحرب ، وهو عنها بعيد بمئات الأميال ، فما بالنا بالخالق البادىء والمبدع المنشىء مخلوقاته من لا شىء ؟ !

* * *

وفى أكثر العقول الدينية استغراق واستدراج خاطىء فى فهم الدين وفقه القيام بأعماله .

إنهم حين يعيشون ساعة الوجدان الدينى ينسحبون من الحياة ومنطقها وينسلخون أو يودون أن ينسلخوا من بشريتهم العملية ، ويحسبون حينئذ أن أعمالهم الدينية ليست للحياة الدنيا وإنما لأمور أخرى خارجة عن نطاق الدنيا .

فهم يشهدون بالله الواحد ، لا كمفكرين ارتضوا الإلهية والتوحيد مذهباً فكرياً قبل ارتضائه قضية سماعية موروثة مأخوذة بجملتها من يد الأم والأب ، بل كأطفال يحكون أقوال الأمهات والآباء ، حكاية الببغاوات ، مع أن هذه الشهادة أعظم وقفة فى حياتهم ! لأنها إبرة التوجيه ومفتاح التحويل و بدء الطريق الفكرية والحيوية .

وحين يصلّون مثلا لا يشعرون وهم مقبلون على الصلاة أنهم يؤدون عملا فى صميم الحياة ، إذ يقفون فى (طابور) الصباح والظهر والمساء كما لو كانوا معروضين قادمين على شكر رئيس فى الحياة يحبونه ، لأنه يسدى إليهم هبة الحياة ونعمها ، و إنما يصلون وهم يشعرون أنهم منفصلون عن الحياة فى تكليف خارج عنها ، ولا يتصل بمنطقها . وهم لا يزكّون وهم يشعرون أنهم يؤدون واجباً مدنياً لإصلاح حياتهم الخاصة والعامة ، إذ يمنعون عنها جرائم التفاوت الظالم والتقاطع القاسى بين الطبقات ، و إنما يفعلون ذلك لاحتياز قصر فى الجنة وللبعد عن حفرة فى النار وحسب .

وقلْ مثل ذلك فى باقى الأفكار والأعمال والرسوم الدينية ، فهى تُفعل وتزاوَل كأنها أفعال خارجة عن نطاق خدمة الحياة الدنيا . . ولذلك انفصل الدين عن الدنيا فى عقول هؤلاء ، وقيل دين وقيل دنيا . . ولا عجب أن ينفصل ، لأن الدين يلقّن قبل دور التميز والحكم العقلى ، ثم يهمل التفكير فيه إذا جاء الدور اللائق به ، فما لم يكن للشخص احترام لعقله يحمله على التفكير فى كل شىء موروث ، تلحقه هذه الجناية .

ألا إن الدينَ هو أداة صلاح الحياة الدنيا التى نحياها هنا أولا ، ولن تصلح الآخرة إلا بصلاح الدنيا ، ولم تكن جنة ونار إلا نتيجة لأعمال الإصلاح اللائق بتأهيل الناس لسكنى الجنة ، وأعمال الإفساد اللائق بسكنى الثانية .

فليستيقظ المسلمون المغمضو العيون الآخذون أقوال دينهم كأنها أقوال كهانة وطلاسم سحرة ، تلفظ وتجرى على الألسنة فى غير وعى ، لا لتنتج شيئاً هنا وإنما لتنتج هناك فقط !

إن الإسلام دين الطبيعة ، ولو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلى الفلسفى الوحيد الذى يجب اتباعه وحمل العقل عليه لاحترام النفس ، والاحتفاء بالحياة العاجلة والاطمئنان إلى المصير السعيد .

وقد مضى زمن الطفولة الذى لم تكن أسرار الدين تُعَلَّم فيه على أنها أسرار للدنيا . والطفل يقال له قبل التمييز : هذا قبيح ، ومعه العصا ، وهذا حسن ، ومعه الحلوى ، لأخذه إلى طريق الجماعة كما يؤخذ الحَمَل الصغير إلى طريق القطيع بأعواد الكلأ الأخضر أو بالعصا ، لأنه فى الواقع حمل صغير لا يمكن أنه يعلو عقله إلى منطق التعليل وفقه الواجبات والحقوق . وكذلك كان يقال للإنسانية هكذا ، ويفعل معها هكذا قبل دور الرشد .

أما الآن فرشدها العقلى المجرد يقول لها ما كان يقوله لها آباؤها الأنبياء المدركون السابقون قبل آلاف السنين .

ومهمة الجماعة فى التربيب والتعليم أن تقول لناشئيها ما كشفته من قوانين حفظ حياتها سليمة كما هدتها التجارب السابقة .

فالدين فى جملته ليس أكثر من سياج للمعروف من أخلاق المجتمع التى ارتضاها لحفظ حياته ، وطريق عقلى يصل الإنسانية بخالقها ومكرمها الذى ارتضى لنوعها هذا الطريق العلمى الكريم الذى فتح عليها بركات من السماء والأرض . وليس الله تعالى كذلك التركى الذى جمع جِراراً وتأمّر على الناس فى الشرب منها ، وجلس يقول للظامئين من السابلة الواردين عليه ، ومعه عصا

يشير بها : اشرب من هذه . . وأنت اشرب من تلك . . لغير سبب إلا حب الأمر والنهى . .

إن هذا أسلوب الجائعين للشهرة والسلطة . . وما كان لمالك السموات والأرض وما بينهما أن يقصد ذلك ، وله المثل الأعلى .

وإنما هو يقول : « فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » .

* * *

وأوجب الواجبات فى تطور فهم الدين أن نقصى من فكرنا الاعتقاد بأن الحياة دار عذاب بطبيعتها لا بجناياتنا نحن واعتدائنا عليها ، فليس شىء أشد ضرراً بالدين والحياة من هذا الاعتقاد ! .

فإن كان الفرد يريد الحياة السعيدة فليعمل هو لذلك وليضع أسسها : لِيتركْ أكل أخيه كما ترك أكل ابنه . لِيتكفلْ بأبناء وطنه المحتاجين كما يتكفلُ بأبناء أخيه . . لِيشعرْ بالقرابة بينه و بين أبناء وطنه كما يشعر بأواصر القرابة فى الرحم والعصب والنسب . . ولْيعدِّلْ أساس توزيع الثروة بين أبناء وطنه كما يعدله بين أبنائه . . ليشعرْ بالإنسانية الواحدة و يغضب لمصلحتها كما يشعر و يغضب للقومية . وهكذا فليتطورْ تطوراً آخر فى فهم علاقاته الاجتماعية ، ليضمن لنفسه أن يسعد بسعادة الناس كما يسعد بنفسه وذوى قرباه .

* * *

وأبداً تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة ، و إنما تفسدها يد الإنسان . وكل الشر والسخف ناشىء من سوء فهم قصد الحياة ومن سوء توزيع الثروة . وما عدا ذلك من شرور المرض والآفات الطبيعية فهى أضرار صار فى يد العلم

التغلب على كثير منها ، ولا بد من حدوثها فى فترات لنتبين أذواق الدنيا وندرك الضدين الخالدين فيها : الخير والشر .

والمسألة الاقتصادية هى أم الشر إذا حلت ذهب تسعة أعشاره .

والإنسان الذى استطاع ترويض الآساد والنمور والفِيَلة بالتجويع والسياط والحيلة ، حتى صارت تلعب فى (السيرك) وأمامها اللحم الشهى من الأطفال الضعاف ، يستطيع أن يروض أو يقمع أخلاق المفترسين من بنى البشر . . فبالتربية لمن يفهم والسوط لمن لايفهم ، يستطيع المصلحون أن يفعلوا شيئاً عظيما .

وأمم الشمال الاسكندنافية فى الغرب مُثُلٌ مضروبة لمن يريد أن يفعل للإنسانية فعلا يسعدها ويجعلها تطمئن لهذه الحياة بالقدر الذى تسمح به دار مؤقتة !

فى أصول الموضوع

الإيمان بين العقل والوجدان

قد لا يوافق بعض الباحثين على وصف العقل بالإيمان ، ويرون الإيمان لا يكون إلا وصفاً للقلب والوجدان ؛ ، سَيْرًا وراء مقالة شاعت فى الغرب والشرق ، وتلقفها المسلمون المحدَثون فيما تلقفوا من سِلَع وعُرُوض فكرية ومادية بدون نقد وعَرْض على ما عندهم من مواريث أصيلة ثابتة .

وأحاول بهذا الكتاب ، أن أردَّ الأمر إلى نصابه من الحق ، وأن أبين أن إثبات العقيدة الأساسية ، وهى [الخالق الواحد] لا يعتمد على الطاقة العاطفية الوجدانية فى النفس ، وإنما يعتمد على الطاقة العقلية الحاكمة الحاسمة التى تدخل الكون وترتاد عالم النِّسَب بين الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة ، وتستمد من قوى التدبر والتذكر والتمييز والرَّبْطَ — وهى جماع قوى العقل — حكمها على الكون بأنه صنعة يد واحدة ، لم تختلف موازينها فى الذَّرَّة الصغيرة التى هى وحدة بناء الكون المادى ، ولا فى المجرَّة الكبيرة التى هى من من وحدَاته الكبرى الهائلة .

والإنسان الذى قد شبَّ فى مجموعه عن الطوق فى هذا العصر ، ووجد فى نفسه القدرة على تسخير كثير من قوى الطبيعة لم يعد يقنعه الإيمان المستسلم بدون تفكير يثبت له أساس عقيدته على الأقل ، وهو الذى صار الفكر سلاحه المجرب فى غزو القوى المادية والتمهيد لحياته المعاشية ، ولذلك أفلت من الأديان التى تريد منه أن يدخل رحابها مغمض العينين ، واضعاً قيودها فى يديه ، وغماءها على عقله ، وهو مستسلم عاجز عن التعليل والارتكاز على ركائز ثابتة

تعصمه من موجات الشُّبَه والفروض التى تتلاطم بها لجج الحياة و يقذف الناس بها من كل جانب فى رحلتهم الطويلة على هذه الأرض .

وكلّ يوم يصغُر حجم الكون وتقترب أبعاده أمام رؤية الفكر البشرى الذى يبحث فى كل شىء ، ولا يقنع دون تحطيم أقفال كل سر . . فليس من المعقول أن يظل واقفا أمام السر الأكبر لصنعة الكون مغمض العينين طامس البصيرة ، يقنع أن يأخذ عقيدته فيها من المستسلمين العاجزين المختلفين المفترقين فى تصور الصانع وصفاته ، إذ أنهم لم يعتمدوا فى تصورهم لصفاته على هذا الكون الذى تأخذهم طلعته العظيمة الموزونة من كل جانب ، ويوحى إليهم تناسقه وانسجامه أنه مصنوع بيد واحدة ومَسُوق بعصا راعٍ واحد ، وإنما اعتمدوا على أقوال الكهانات ذات الطفولة المحدودة والتصور القاصر عن رؤية أبعاد الكون و إدراك الصفات التى تليق بصانعه . .

ولئن كان الهادى إلى إيمان القدماء فى عصور القصور والعجز هو الرسل والكتب ذات الوصايا المختلفة ، فإن إيمان المحدثَين ينبغى أن يكون هاديه هو كتاب الكون الأكبر الذى نطقت سطوره وتكلم نوره .

ومن حُسن حظ المسلمين أن قرآنهم جاء ترجمة ناطقة بليغة مبكرة لكتاب الكون . . وكان من أعظم أسرار إعجازه أنه تفرد بين كتب الأديان جميعاً بهذه الميزة الكبرى التى أسرعت بالعقل البشرى إلى غاياته من حلّ رموز الكون واستطلاع أسراره ، والاهتداء بها إلى خالقها ، والتعبّد له عبادة الفكر العالم الذى رأى الكون كله مَعْبداً ومحراب صلاة دائمة يردد فيها شهادته مع الله تعالى والملأ الأعلى : أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ! .

وكما قلت وأكرر دائما : لو لم يكن القرآن كتابا مُوحًى به لكان أعظم مذهب عقلى طبيعى أخذ الفكر البشرى إلى أقرب طريق فى التفكير الحر الذى يتلقى آراءه من الطبيعة مباشرة ، ويفر إليه كل من أبى الخضوع والاستسلام

لمنطق الكهان المحترفين الذين لم يدركوا بعقولهم جوهر الدين والفكرة الأصلية فيه؛ لأنهم لم يتحا كموا إلى كتاب الكون الأكبر، وإنما أخذوا الإيمان وأعطوه بالوجدان المستسلم والمشاعر الغامضة التى يَرُوعها «المجهول» فتخشى وتخاف وتتعبد عبادة الرهبة والعجز، لا عبادة أولى العلم الراسخين فيه، الواصلين فى إدراك الحياة إلى قرار مكين.

والمسلمون الأولون قد تلقوا العقائد الإسلامية بالفكر والعلم والتدبر والتذكر والتمييز والحكم استجابة لدعوة القرآن لهم وإهابته بهم أن يأخذوها بقوة عن هذه الطرق التى لا سبيل سواها لِتَلَقِّى عزائمها وجلائلها؛ ولذلك كان الواحد منهم ما يلبث أن يفقهها ويدرك ماوراءها من تبعات الفكر والعلم حتى ينفُض مافى رأسه وقلبه من خرافات وأوهام ومناقضات لها، ولم يكونوا يشعرون أنهم فى خطر من الفلسفات والآراء اليونانية وغيرها بل كان جميع فلاسفتهم ومفكريهم الذين اتصلوا بالدراسات المختلفة الغريبة عنهم لا يجدون فيما يخالف العقيدة الإسلامية شيئا يقوم مقامها فى الرسوخ والوضوح وسكون النفس وطمأنينتها إليها، وقد سخّروا ثقافاتهم الأجنبية كلها فى خدمتها وتأييدها، لا كما حدث بعد ذلك فى العصور الأخيرة بعد أن خَوَتْ عقول المسلمين من فلسفة دينهم وأسرار عقائدهم وأحكامه وتشريعاته، واحتلت الثقافات الأجنبية عقولهم فصادفت فراغا قاتم الأعماق! وتمكنت حتى أنتجت نتائجها الطبيعية المحتومة، من فسولة التفكير، وتفاهة التدليل، والضياع والاضطراب بين المذاهب والآراء، والتطرف بالإلحاد، وانتحال التحضر، وادعاء حرية الرأى، مع تقليد القرود والببغاوات.

وما لم تؤخذ عقائد القرآن بجميع قوى الوعى والفكر، ثم تنزل منازلها الكريمة بعد ذلك من الوجدان والمشاعر والضمائر لتأخذ منها الحرارة وقوى الدفع إلى الأعمال، فإن المسلمين إلى بلبلة واضطراب فكرى لا محالة.

خالق الكون

المدخل إلى الإيمان به

وتحليل العملية العقلية فى ذلك الإيمان

لا قيمة لاعتقاد النفس بشىء قبل أن تكتمل لها أدوات التفكير والتمييز ، وكل ما اعتقدته قبل دور اكتمال تلك الأدوات ينبغى لها أن تعيد النظر والفكر فيه وتقلّبه على وجوهه المختلفة من جديد لتختار منه مايصلح لدور الرجولة والرشد وتطرح ما عداه .

وكل دعوة دينية صحيحة ، قد جاء بها كل نبى قومه وهو وهم فى دور الرجولة ، ولذلك كان يثور الجدال وتتلاقى حجج الرشد وحجج الغى ، فتتهافت وتسقط حجج الغى حينما تعرض على الموازين الفكرية الدقيقة الحساسية ، وتستجيب القلوب السليمة لدعوة النبى بعد الاقتناع الفكرى .

وقد جاء القرآن دين رشد ورجولة ، لا دين طفولة ، ولذلك كانت دعاويه مكتملة الحجج العقلية معتمدة على منطق الرشد وحده ، لا على الخوارق والمعجزات ، المادية التى تلزم الناس بدون تعليل فكرى .

« وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ! كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ . قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً » . « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قل إنما الآيَاتُ عندَ الله و إنما أنا نذيرٌ مبين . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لرحمةً وذكرى لقومٍ يؤمنون »

ومسائل الدين لا يمكن حمل النفوس على الإيمان بها بمعجزات وخوارق وقتية ، لأنها ما دامت لم تؤمن بالمعجزات الدائمة التى تملأ الكون كله فهيهات أن تؤمن بشىء خارق وقتى ، وإنما يمكن حمل النفوس على الدين بالتذكير ودعوة الفكر إلى التدبر والتحاكم إلى الفطرة والبداهة التى تستند فى وجودها كله إلى حقيقة « السببية » وتستخدمها فى إنشاء الأشياء وتعليل الأفعال ولا تسير فى حياتها كلها إلا على هداها . .

* * *

وحقيقة « السببية » الفطرية هذه ، هى المدخل إلى اثبات القضية الدينية الأساسية وهى الإيمان « بخالق الكون » وقد رأيت من الواجب تحليل العملية العقلية فى إدراكها وبيان مستقرها العقلى :—

ليست هى قضية « وجدانية » تأخذ من المجهول للنفس أكثر مما تأخذ من المعلوم لها ، بل هى فى أصلها ومنبثقها الأول تأخذ من « المعلومات » ويقينات الحس والبداهة والحكم العقلى أكثر مما تأخذ من أية منطقة أخرى من مناطق النفس البشرية . . .

فليس الموطن الأول لهذه العقيدة هو الوجدان ، منطقة الانفعال والاستسلام أو الثورة ، بل موطنها هو موطن ذلك « البرق » الذهنى أو العقلى الذى ينتج « حكما » يرسله إلى الوجدان فينفعل له ويتقبله « ويعقِده » فى طويته ويستسلم له ويسير فى حياته على مقتضاه .

هذا البرق الذى ينتج « الحكم » يستمد « حيثيات » أحكامه من انطباعات الصور الثابتة للكون فى النفس ومن الانفعالات الداخلية بهذه الصور . والذى أعلمه من علم النفس أن أول « برق » يبرق فى النفس وينطبع فيها هو

الإحساس بحقيقة « السببية » التي تفجأ الطفل ويتحرك لها فمه حركة « منعكسة » آلية عند ماتلقمه أمه ثديها ، فيجد أثراً واضحاً لذلك التحريك تنفعل له أعصاب الجوع والشبع .

وكذلك عند ما يصل إلى عينه أو أذنه أول شعاع ضوئى أو أول صوت فيجدله أثراً فى حساسية بصره أو سمعه ، ثم لا تلبث الآثار المطردة « الأسباب » أن تتلاحق على مجمع حواسه حتى تنتج طائفة من الأحكام المطردة المبنية على الانفعالات المطردة التى يجدها فى حواسه وفيما وراءها .

وهذا ما يقرره القرآن نفسه بقوله : « وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

ويدرك الطفل حقيقة السببية وقيمتها فى كل ما يحاول من أعمال فردية ، وتعليلات لجزئيات الحياة ؛ إذ لا يجد شيئاً يقع أمامه أو يناله إلا بسبب ، ولذلك يكون كثير التساؤل عن سبب كل شىء . ومن الأطفال من يرهق والديه ومربيه بكثرة الأسئلة . كل ذلك لأن الفطرة تؤمن بالسببية فى حدوث الأشياء ولا تؤمن بالوجود المعتبَط للأشياء ، ولا بسيرها بالاحتمالات والصدفة . فإذا أدرك عقل الناشىء الكون كله كوحدة ، وجاوز مرحلة الوقوف عند الجزئيات ، سأل السؤال الأكبر الذى ما خلق إلا ليسأله ويجيب عليه ، وهو : من خَلَقَ هذا الكون ؟! .

وعند ما يصل الناشىء إلى مرحلة إدراك الكون كله كوحدة ، لا يتجه بانفعال وجدانى إلى « السبب » الأكبر للكون ؛ لأن ذلك الوجدان لم يوجد بعد ، وإنما يتجه إليه بحكمه الذهنى الذى يركب قضية ذهنية منطقية فى خفاء وبدون ألفاظ ، يحكم بها أن لهذا الكون سبباً ذا قدرة ومشيئة تدبره

وهى التى أدخلت الإنسان إلى الدنيا العجيبة وتخرجه منها ، ولن ينفعل لهذا وجدانه « بالدين » إلا إذا صح لديه هذا الحكم ، فإن لم يصح لديه أن لهذا الكون عقلا يديره فلن ينفعل وجدانه لعقيدة دينية إلا تحت تأثير الخوف والتهيب أمام المجهول . وليست هذه مواقف الإيمان الصحيح المستنير الثابت الذى لا يتزعزع ، وإنما هى مواقف الإيمان الأعمى المقلقل الحائر المستعد للتقلب ، كما هو الحال فى أكثر الذين لا يأخذون الدين بالفكر عند ابتداء صحوهم من ذهول الطفولة .

فالعقل أو قوة الحكم هو صاحب هذا الموضع الأول من النفس ، ينتج لها تلك النتيجة الأولية التى تجعلها تنفعل بوجدانها انفعال الإيمان ، وهو الجزء « المتبلور » فى جميع النفوس — والوجدان جزء مائع — وهو الحكم الذى يكاد يكون من عالم الإرقام التى تنتج نتائج واحدة بقوانينها الواحدة .

ونحن فى سبيل البحث عن حجة الله على الناس جميعاً . ولن تكون هذه الحجة فى أغلب الأمر إلا عن طريق العقل والفكر الدقيق الذى يحا كمنا الله إليه دائماً فى الحياة وفى القرآن ، ويردد اسمه ، ويلومنا ويقرّ عُنا بأننا لا نفكر ولا نعقل ولا نتدبر ولا نتذكر ولا نتخذ أسباب الوقاية كما يوحيها العقل .

نعم إن الموطن النهائى للعقيدة هو الضمير والوجدان ، ولكن بعد أن تمر من العقل أولا ويحكم بوجوب سكناها فى الوجدان لتستمد من حرارته قوة الاندفاع والعمل للدين .

وقد كان الوثنيون الذين أنزل إليهم القرآن يعتقدون عقيدة فى «وجدانهم» ويتعصبون لها ويصدرون عنها فى حياتهم ، لأن أذهانهم كانت تحكم بصحتها

فبماذا زعزعها القرآن فى وجدانهم وضميرهم ؟ أليس بالمحاكمة العقلية التى كشفت عن عقولهم ضباب الوثنية القديم ، وأدركوا بها الحق الأول بالذهن والحكم ، ثم أخلَوْا وجداناتهم من العقيدة القديمة وأحلُّوا محلها العقيدة الجديدة ؟

والوثنيات تجد فى منطق الوجدان وحده مدداً متصلا ، بالانطلاق وراء الرموز والتهاويل والإثارات الفنيـة التى هى باب الوجدان . وقد افتخر « طاغور » واحتج للوثنية بأنها مجال طيب لرقى الفنون . . . ولا شك أن هذا احتجاجٌ طفلىٌّ لا يتصل بسبب كريم بالحق والعقل والكرامة الإنسانية والمصلحة الاجتماعية .

فالقول بأن منطقة الدين هى الوجدان وحده قول غير إسلامى . أخذه المسلمون المحدثون من المفكرين غير المسلمين الذين لم يعرفوا الأساس الأول للإسلام والدين عامة ، والذين وجدوا فى أديانهم أسساً يأباها العقل والمنطق ، ووجدوا الدين فى ذاته كفايةً نفسية لا بد منها ، فأرادوا أن يجمعوا بين الدين والعقل ، فزعموا أن لكل منهما منطقة قد يناقض ما فى إحداهما ما فى الأخرى ولا ضير ! أما الإسلام فأساسه أن إله القرآن هو الإله الذى وصفته الطبيعة ووجهت العقل إليه ؛ واعتمدت فى هذا التوجيه على المحاكمات العقلية كأساس أول ، وعلى المحاكمات الوجدانية المبنية على هذا الأساس ، وقد استخدم القرآن فى سبيل ذلك كله البيان المشرق الجميل البارع المعجز فى تعبيره وأسلوبه .

ولم يقصر خطابه على طائفة واحدة معينة ، هم طائفة الذين ارتفعوا عن المستوى العام للناس ، واحتكت عقولهم بما وراء سطح الحياة وما وراء البداهة والحس من عوالم الفروض والصور الطليقة من قيود الحياة الظاهرة ، بل خاطب

الناس بالقدر المشترك بينهم جميعاً ، وخاطب هـذه الطائفة الممتازة فى بعض معارضه كما خاطب المبتدئين القاصرين فى البعض الآخر .

والقرآن يفرض الفكر ميزاناً قائماً بذاته مستقلا عن الإنسان ، ثم يعجّبه مما يراه فى الوجود ، كأنه زائر غريب عن الحياة ، دخل إليها من عالم آخر وهو بكل وعيه ، ولا شك أن الفكر بجميع قواه حينما يدخل إلى الوجود كأنه غريب عنه ، يعجب غاية العجب من بدائعه ، ويحكم الحكم الجازم بأنه لبارىء واحد .

فالموقف الأول من الكون والإيمانِ بربه الواحد ، موقف « جَزْم » بالذهن والحكم العقلى . إذ أننا نشعر ونحس أننا واقفون إزاء « معلومات » تنتج العلم والحكم الضرورى البديهى والمركّب .

وهو موقف دينى سابق على مجىء النبوات والرسالات ، لأنها تعتمد عليه فى التدليل على قضاياها والتحاكم إليه . فالدين عقلى طبيعى فى الإيمان بأصله الأول وهو الخالق الواحد .

ولقد وجدنا كل جماعة دينية تؤمن بما عندها بوجدانها . فهل لهذا وزن إلا عند ما يدركون شاكلة الحق الذى عند الله والذى يوحى به الكون ! وهل يدرَك الحقّ إلا بقوة « الحكم » التى هى موضع الحساسية بالعدالة والقوانين الطبيعية التى استمددنا منها حكمنا ، والتى لا تنظر إلى الصور والإطارات وإنما تنظر إلى صلب الأمور ؟

* * *

والقرآن لم يُعْن بأن يرد على منكرى وجود الله . وكأنه لم يفرض وجودهم ، أو كأنه نظر إليهم على أنهم خارجون عن نطاق العقل والبداهة ، ولذلك لم يحاجهم

ولم يوجه إليهم قولا يشعر بأن لهم وزناً . وإنما وجه حديثه الأكثر إلى المشركين مع الله آلهة أخرى ، الذين من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها . . . وخلعوا صفاتها على كثير من المخلوقات ، فهؤلاء لديهم الإيمان الوجدانى ولكنه إيمان مدخول يحتاج فى تعديله وإقامته فى نصابه الطبيعى إلى منطق عقلى يستعرض الكون ويستقرئه ويستنتج منه أنه لاإله واحد .

فالحديث مع هؤلاء المشركين لا يستلزم إلاالإيقاظ إلى الكون وأعاجيبه الموحية أنه من صنعة يد واحدة . . . وهذا ما فعله القرآن . أما الذين التمسوا وراء حديث الإيمان الفطرى مناطق يتحدثون فيها عن ذات الله وصفاته والكون ومبدإ وجوده وعلاقته بالله وصفاته ، إلى آخر مباحث علم الكلام والفلسفة ، فهؤلاء لا يدّعون أنهم يؤسسون عقيدة للجمهور بكلامهم ، وإنما يريدون أن يصلُوا بين هذا الكون المادى العجيب وبين ما قبله وما بعده . وموقفهم هذا موقف طبيعى ، هو نتيجة للعَجَب الذى يرونه فى هذا الكون ، ونتيجة لشعورهم بأن عقلهم وحكمهم يريد أن يتصل بألغاز الحياة وما قبلها وما بعدها ؛ فإنهم يشعرون أنهم غرباء فى هـذا الكون المادى ذى القوى الموزونة والطلْعة الجبارة المثيرة للفكر أيَّما ثورة . ولابد للغريب أن يبحث ويتقصّى ويتعرف المكان الذى دخل إليه ، ويتعرف إلى صاحبه ويبحث عن شئونه كيفما ساعدت الوسائل .

غير أنهم يجب لكى يضمنوا الحياة العملية فى الأرض والأُلْفة العقلية ، ألا يشردُوا ويحملوا عقولهم فوق ما تطيق ، ولا ينسوا أن الإله الحكيم الذى وضعهم هكذا قاصرين عن إدراك كثير من الأمور ، وعن إدراك المبدأ والمنتهى إدراكا كما يشتهون ويتطلبون ، إنما فعل ذلك لحكمة بالغة هو يعلمها ، فيجب أن يلتزموا حدود « الضيافة » المؤقتة فى هذه الحياة . ولا شك يكون

لهذا الالتزام ما بعده من التناسق بين الفكر والعمل من الألفة العقلية . وما كان للقرآن أن يكون على أسلوب تفكيرهم الخاص وهو قد جاء ميسّراً للناس جميعاً .

ولكنه مكن هؤلاء العقليين والمتفلسفين أن يؤلفوا من معانيه التى تحت « سطحه التعبيرى » قضايا ذهنية يستطيعون أن يستخدموها فى أسلوبهم الخاص . فهو قد ساق قضية عقلية عظمى بأسلوب بسيط ميسر للناس جميعاً حينما قال : « لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا » ، وترك للعقليين أن يبينوا كيف يكون هذا الفساد حينما يفرض التعدد فى الآلهة . . .

وحينما قال : « مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلٰهٍ . إِذَنْ لَذَهَبَ كلُّ إِلٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، ولَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » . أرسل هذه للقضايا هكذا واضحة ميسرة ، وترك للعقل أن يتحاكم إلى الكون ويستقرىء أحوال الأشياء إذا كانت بين والد ومولود ، وإذا كانت بيد واحدة ، وإذا كانت بأيد متعددة . وعماد الحكم فى ذلك هو الحركة العقلية الآخذة من كل مورد من موارد النفس والكون وكل قوة من قواهما لتصل إلى الحكم .

والمتتبع للقرآن يرى أن وراء « سطحه التعبيرى » السهل الميسّر ، عالماً يموج بالمسائل العقلية والبديهية والفرضية تضع العقل البشرى فى موضع أصيل كريم كأنه هو « وحدة القياس » فى كل العالم لا فى الأرض وحدها .

خالق واحد

ليس وراء ما وضع القرآنُ عقولَنا عليه من أعماق الكون ، مستقرٌّ آخر يصح أن نتعمق إليه ونستقر عليه .

وليس مذهب من مذاهب العقل والفكر الخالص الصحيح يستطيع أن يأخذنا إلى غير ما أخذنا به القرآن فى الطبيعة وما بعد الطبيعة .

إنه أحال كل قضايا الإلٰهية وكمالاتها إلى قوة الحكم العقلى وحده ، فكان لقاء بديع بين الدين والعقل ، وهو لقاء محبب تحتاجه الإنسانية الآن مسيس الاحتياج ، وإنه لو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلى الطبيعى الوحيد الذى أثبت الموجود الواحد الكامل الأزلى الأبدى ، قبل أنه يثبته الفيلسوف الكبير (كانت) بمدًى من الزمان طويل .

وأحاول أن أبين أن قضية التوحيد كما وردبها القرآن ليست قضية تعتمد على « المجهول » والرهبة منه والتوهم فيه ، وإنما تعتمد على « المعلوم » الثابت بالحس والبداهة والمحاكمة الفكرية بجميع قوى الفكر من الاستقراء والتذكير والتدبر والتمييز والضبط والحكم .

وليست كذلك تعتمد فى مبدئها على « السماع » بطريق « الوحى » من عالم آخر ، وإنما تعتمد على الإدراك بالقوى الفكرية الطبيعية فى كل فرد صحيح التفكير ، عالم بالكون ، سليم الطبع ، موزون القوى ، وعلى التفاعل الفكرى بينه وبين هذا الكون الكبير العظيم ذى الطلعة الأخاذة الجبارة ، والقوى الموزونة الدقيقة المتناسقة المنسجمة ، ثم ينزل الوحى الإلٰهى مما وراء الطبيعة فيؤيدها ويذكّر بها ، ويبين ما يلتبس على العامة فيها .

وليست كذلك تعتمد على الجانب « المائع » المتموّج المتقلب فى الطبع الإنسانى ، وهو جانب الانفعال الوجدانى بالإثارات الفنية والأجواء الغامضة المسحورة ، والشطَحات والخطفات ، وجنون الأرواح بالأسرار ، وانسلاخ القوى ، وتجسيم الخيال ، والاستغراق فى أودية التهاويل والرموز ، وغير أولئك مما تعتمد عليه الوثنيات التى لا ترى الـكون بذلك الوضوح الذى يراهما به الفـكر المسلم العالم ، وإنما تراهما مبهميْن مختلطيْن غير منفصلين ، فلا يستقيم لها منطق إنسانى ولا منطق إلهى ، وإنما تلتبس عليها وجوه الـكون وتختلط وتتداخل ، فلا ترى الطريق القصير المستقيم إلى الله الواحد لتشهد به شهادة إثبات ويقين جازم تفظ مستنير راسخ فى إصرار لا يتزعزع ولا يرتد ، وإنما يأخذها وجدانها إلى التقليد المبهم ، حيث الإثارات الفنية والأضواء والأصداء ونداءات المجهول الهائل الغامض المخيف ، فتنبض قلوبها ولو فى بيوت الأوثان ذلك النبض الذى يخلع على الأصنام الأوهام والتخييل ، فترقص أشباحها فى عيون عابديها ، وتنطق أصواتها فى قلوبهم ، ويحبونها كحب الله إن كانوا يعترفون به معها ، أو يخصونها بالعبادة دونه ، ويحيطونها بفلسفات ومخْرَقات وكهانات ، ويتحرك لها وجدانهم ، ويشعرون نحوها بتبتل ورهبة ، ويؤثرونها على الله ، ويزعمون أنها الحق ، والوحدانية فرية واختلاق وعَجَبٌ من العَجَب .. « أجعل الآلهَةَ إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عُجاب ! » ؛ « إنْ هذا إلَّا اختلاق » ؛ « وَمِنَ الناسِ مَنْ يَتّخِذُ مِنْ دُون الله أنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ الله » ؛ « وإذا ذُكِرَ الله وحْدَهُ اشْمأَزَّتْ قُلوبُ الذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بالآخِرَةِ ، وَإذا ذُكِرَ الذين من دُونِهِ إذَا هُم يَسْتَبْشِرُون » ، « وَيَجْعلُون لِلهِ ما يكْرَهُون » « فَما كان لِشُرَكائِهِمْ فلاَ يَصِلُ إلَى اللهِ ، ومَا كَانَ لِلهِ

فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِم » ، بل يصل بهم الحال أن يقاتلوا فى سبيلها فَيَقْتُلُوا وَيُقْتَلُوا وهم يقولون لصنمهم الأكبر « أُعْلُ هُبَلُ ! »

فلو كان « الوجدان » هو مناط الإيمان وطريقه بدون محاكمة عقلية واعتماد على استقراء حقائق الكون فى سبيل الاهتداء إلى التوحيد والإلهية ، فما هو إذاً الفرق بين وجدان الوثنى ووجدان الموحد ، وبين إيمان هذا بالله ، وإيمان ذاك بآلهته وأصنامه ؟ إن الوثنى مؤمن بآلهته بحرارة وجدانية ، ويقاتل فى سبيلها . فأيهما على حق ، وأيهما على باطل ؟ إذا كان الاتجاه فى الإيمان إلى « المجهول » ، وإذا لم يكن التحاكم العقلى الاستقرائى إلى الكون هو الميزان والفيصل ؟ وما هى أدوات ذلك التحاكم العقلى غير القوى التى يوجب القرآن وعلم النفس الحديث استعمالها كالاستقراء أو الاستعراض والاستنباط والتذكر والتدبر والتفكر والتمييز والحكم ؟ تلك القوى الهادئة الفاصلة المضيئة التى تضىء للروح طريقها إلى الحق ؟

وهل بأحدٍ حاجةٌ إلى أن أنبهه إلى أن كثيراً جداً من آيات القرآن تحض على التذكر والتدبر والتفكر والاستقراء والفهم والتمييز واستعمال الحكم ؟ وهل يحض القرآن على التهدِّى بقوى الفكر إلا وهى أسلحته وموازينه ؟ وهل يسكن قلب امرىء ممن يعتد بهم ووجدانَه عقيدة أساسية إلا بعد أن تمر على عقله ويقتنع بها ؟

إن أصحاب محمد حينما تركوا عقائدهم وعقائد آبائهم الوثنية واتبعوا الوحدانية معه ، وتحملوا من أجل الإيمان بالله وحده ألواناً قاسية من الاضطهاد والعذاب لم يكونوا أطفالا ، وإنما كانوا مفكرين آثروا الوحدانية على الوثنية بعد أن أيقظ قوى أفكارهم موقظُهم العظيم ، فوازنوا بين الدينين ، وحكموا واختاروا وتحملوا التبعات .

ثم ما هى حجة الله فى مؤاخذة المشرك حين قال : « إنّ اللهَ لا يُغْفَرَ أن يُشْرَكَ به » ما دام ذلك المشرك يجد فى قلبه وعواطفه وهواه ميلا لعبادة الشركاء والأصنام تماماً كما يجد الموحد هواه وعواطفه فى عبادة الله ؟

وكيف يهدد الله محمداً رسوله بإحباط عمله وتعذيبه لو فتن ومال ، فى قوله : « وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ؛ وفى قوله : « وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا ، إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا وَكِيلًا » . أليس ذلك لأن الموقف الفكرى هنا فى عقيدة التوحيد موقف واضح حاد صارم ! لا يحتمل الشبهة ولا الميل يسرة أو يمنة ، لأنه إزاء قضية الكون كله وأعظم شئونه ؟

فهو حقيق أن يقول القرآن فيه : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ! » .

يا للإهدار والإهانة والتضييع والتحطيم ! يالغضب الملك الحليم الجبار الرحيم عل من لم يُفرده بعرشه العظيم !

فهل كانت هذه الغضبة الإلهية إلا لأن المشرك ضيع الميزان الدقيق الهادئ الحر الذى وضعه الله بين قوى فكره ، ولأنه سار وراء الانفعالات التى لا تستند إلى مراكز ارتكاز واضحة ؟

إن كان يراد بالوجدان ما يسمى الآن « الضمير » وهو تلك الاستجابة الطبيعية للجمال والخير بدون تعليل ، والنفرة من الشر والقبح بدون تعليل كذلك إلا لأن الطبع هكذا ، فذلك ليس حديثه هنا ، و إنما فى مجال الأخلاق والسلوك . ونحن هنا إزاء قضية التوحيد ، تلك القضية الفكرية التى تأتى فى مرتبة

تالية بعد إثبات وجود الخالق المدبر بالبداهة والفطرة التى من طبيعتها أنها لا ترى حدوث كائن ما بدون سبب ، ثم يتساءل الفكر : هل هذا الخالق المدبر متعدد أو متوحد ؟ ثم يصل إلى « التوحيد » ويوقن به بعد الاستقراء والتتبع لمعلومات الكون وإدراك ما فيه من وحدة التصرف وتوازن القوى المادية العارمة المجنونة العمياء ، والالتئام والتناسق الدائم بينها « فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟ » . « أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

ويستلزم الأمر أيضاً أدوات من المعرفة بطبائع التعدد فى الأيدى المتصرفة وبالتجارب الأزلية النفسية والاجتماعية بين الأمثال والأشباه من الرؤساء ، وباستعراض مقالات الأديان الوثنية والمعددة للآلهة وما حولها من الأساطير وأحاديث الصغارات والطفولات فى الحلوم والتصرفات ، والمعارك الدائمة بين آلهة الخير وآلهة الشر ، وتفاوت القوى والمواهب بينهم جميعاً ، وانتهاء آفاقهم جميعاً إلى أكبرهم ، يخضعون له ويستمدون منه ولا يستطيعون منه مهربا ، كما كان الحال مع آلهة اليونان والرومان ، إذ ينتهون إلى (ذيوس) و (جوبتير) وكما قال القرآن بتلك الحجة العقلية الدامغة : « قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا » . « مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ » .

إن « الوجدان » بمعناه الاصطلاحى الذى شرحناه لا يفصل فى هذا المعترك الزاخر ، لأنه منطقة التبتل والخشوع والاستسلام للإله الواحد أو الآلهة المتعددة بعد انتهاء المعارك الفكرية حولها .

وهو يعمر قلوب جميع المتدينين موحدين ومعددين ووثنيين ، فكلهم يبكون ويخشعون فى معابدهم وفى حالات هيامهم الروحي . هؤلاء يتوجهون لمعبوداتهم المتعددة ، وأولئك لمعبودهم الواحد . . . فما الذى يجعل القرآن يقول عن المؤمنين بالله : « أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ » ، وعن الآخرين : « أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ » ، لولا أن منطقة العقل الوزّان هى المحكمة وهى المسئولة ؟ .

قلت : إن جدل القرآن فى مسألة التوحيد جدل عقلى إثباتى بالبراهين الاستقرائية والتطبيقية والعملية والتاريخية ، فساق براهينه وطالب مخالفيه بمثلها : « قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ » . « هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا » . « قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ ، إِيتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ » .

وسأبيّن ما تنطوى عليه آيات التوحيد فى (سورة الأنبياء) من ضروب الأدلة العقلية جميعها بما لايدع مجالا للشك فى أن القرآن جادل عن التوحيد خاصة جدلا ذهنيا عقلياً ، ولكن بأسلوبه الغنى المتفرد الذى يحرك الوجدان أيضا بجماله بجانب الحركة العقلية بحججه .

وقد نبهت فى مناسبات شتى إلى ما فى القرآن من تفرد بأنه يقف العقل البشرى عند حدوده ، ولم يكلفه أن يسبح فى غير عالمه ، فهو لم يتحدث عن (الله) إلا للتعريف بصفاته وصنعه فى الطبيعة التى هى مدرسة العقل ومدرَجُه وأداة تكوينه ومآخذ أحكامه ، ولم يحدده إلا بـ (الذى) خلق ، (الذى) رفع السموات (الذى) له مافى السموات وما فى الأرض . . . هكذا بالاسم الموصول المبهم بنفسه الموضّح بصلته ، وصلته دائما من (معلومات) الفكر و (بداهاته) و (مدركاته) الحسية والمعنوية . . .

ولم يتحدث عن كنه الله إلا مرة واحدة على سبيل التمثيل ، وهي « اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأرْضِ » ، ولكنه ليس تحديداً لكُنْه الذات العليا ، ولكنه تقريب وتمثيل : « مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاح ، المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَة ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرّى » ، فالنفس تأخذ من هذا التمثيل أن الله هُدى وجمال ولطف و إشراق غير محدود .

ووصف القرآن لله وصف منتزع من الطبيعة : كتاب الله الصامت ، فما أثبته كلام الله الناطق له ، هو بعينه ما أثبتته الطبيعة كتابُه الصامت ، فلو لم يكن القرآن كتاب دين موحى به ، لكان كتاب مذهب عقلى يصف (الذى) خلق هذا الكون بعد أن استقرأ أعمال يده وعلمه وقدرته فى كل كائن من كائناتها .

فهو (الخالقُ البارئُ المصوِّرُ) لأن أعمال الخلق والبرء والتصوير فى الطبيعة تشهد بذلك ؛ وهو (الرَّحْمٰن الرحِيم) ، لأن يده دائما مع الضعف والعجز بين جبروت المواد والقوى العمياء ، حاميةٌ حافظة لطيفة رفيقة ، وهو (الملك) ، لأننا لم نجد لغيره شِركا فى السموات والأرض ، ولا قطميرا ولا نقيرا وهو (القُدُّوس) : لأنه الكمال المطلق والموجود الكامل المنزه ، الذى يجده العقل وراء ما يراه فى الكون من نقص ، وهو (السلام) : لأنه لم يجعل العالم جحيما ودماراً وآلاما وقلقلة واضطراباً وصداما لايسمح باستقرار الحياة ، ولا باستقرار نظام الأجرام السماوية والأوضاع الأرضية ، وهو أمان الخائف اللائذ الهارب من الشرور والقبح والآثام ، وهو (المؤمن) : لأنه مُصِرٌّ ثابت على اتجاهه بالكون إلى غايات واحدة أزلية هو أعلم بها ، لم يجعل الشر خيراً ، ولا الخير شراً ، ولم يقلب موازينهما ، فالحياة والجمال والخير والرحمة والعلم من حقائق الكون العليا الخالدة ، وسننه التى لن تجد لها تبديلا ولا تحويلا ،

فالله مؤمن بها ؛ وهو (المنعم) : لأن ما فاض منه على الـكون من بدئه للآن من فيوض النعم المتوالية والجمال والخير شيء عظيم ، وهو (شهيد حفيظ) لأنه مع كل صغيرة وكبيرة فى الـكون لا يضلّ ولا ينسى ، وهو (جبّارٌ قهّار) . لأنه يسوق الـكون الأعظم الهائل بعصاه ، ويمسكه فى قبضته ، وهو (حليم ستّار غفور) : لأنه يتيح الفرص للخارجين على الحق والصلاح أن يرجعوا ، ويمهل ويملى ويعفو عن كثير من نقائص الطبع البشرى . . . إلى آخر الصفات الْحُسْنَى التى ينتزعها الفـكر من الـكون ، ويترجمها بألفاظ تكون نتيجة لذلك التفاعل الخفى بين الطبع البشرى مع جمال الـكون وجلال طلعته الأخاذة ! .

فهـل ترى القرآن أتى بشىء عن الله تعالى خارج عن حدود الطبيعة لا يثبته العقل ؟ ! .

إن الفكر البشرى فرض (الأثير) ، وحدده بآثاره ، وأثبته بخواصه ، مع أنه لا يُرَى ولا يحدّ ، وسلم له العلم بإثبات هذه الصفات ، وكذلك يفعل الفكر فى إثبات صفات بارئ الـكون ، كما تتجلى فى الطبيعة ، فينبغى أن يسلم له العـلم بذلك بدون حاجة إلى إدراك كنه ذات الله ، ولا كيف تتعلق صفاته بها .

***

ذلك أمر بمكان عظيم من الاعتبار ، ينبغى أن يعلمه المسلمون غاية العلم ، ويقوموا له بحقـه من الإذاعة ، حتى يعلم العقليون والعلماء — وهم قادة الإنسانية فى الأمم الحية — أن القرآن كتابهم ، وطريقته فى الاهتداء إلى الله علمية فى موضوعها وفى نتائجها وفى غايتها ، فلا يسلـكوه مع غيره ، ولا يأخذوا عقائده مغمضين ، لأنه هو ينهى عن ذلك : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ ، كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا » . « وَالَّذِين

إذا ذُكِّرُوا بآيات ربِّهم لم يخرّوا عليها صمًّا وعميانا » . « قل إنما أعظكم بواحدة : أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا » .

* * *

كل ما فى القرآن من (منطق) الوجدان فى إثبات عقيدة التوحيد أنه ساق القضايا العقلية بتعبير جميل أخّاذ حرّك به الوجدان والمشاعر مع تحريك الذهن والحكم لصلب كل قضية ، ولم يسقها بأسلوب جاف كأسلوب المناطقة أو الرياضيين الذى تتزاحم فيه المعانى فى ألفاظ ضيقة . وأى كلام اعتمد على الحقائق البديهية الخالدة وعلى مقدمات ونتائج صحيحة ، سواء أكانت محسوسة ومنظورة أم غير محسوسة ومنظورة ، فهو منطق ذهنى . فإذا جمع إلى صحة المقدمات والنتائج جمال التعبير وروعة الأسلوب وإشراق الطلعة ، فهو منطق وجدانى كذلك .

منطق الوجدان — وإطلاق (المنطق) هنا تجوز فى التعبير — هو الذى ينفعل بالخطابيات والشعر والموسيقى وغير أولئك من ألوان الفن التى لاتعتمد على الحقائق الثابتة و (نقط الارتكاز) الواضحة فى عالم البداهة و (الحكم العقلى) . والتأثر بهذا (المنطق) تأثر وقتى لايترك رواسب فى الذهن ومقاييس تملأ اليد ، يستطيع الفكر أن يتحاكم إليها ، ولأنها ألوان وظلال ونغمات وأعراض غير ملازمة تنفعل لها النفس انفعال الانقباض أو الانبساط وقتاً ثم يزول تسلطها عليها .

وليست هذه الأعراض هى طريق إقرار (العقائد) ودعائم الفكرِ والحياةِ عند الراصدين المتيقظين الواعين . وخصوصاً الدعامة الأولى والقضية الكبرى التى هى قضية الكون كله وأعظم شئونه ! إن الوجدانيات من الخطابيات والشعر والموسيقى وسائل إقناع وقتى للبسطاء ، وليست وسائل

يقين ثابت للذين يبحثون لعقولهم عن عواصم تستند إليها من طوفان الأهواء والنوازع والوجدانيات المتقلبة ... وما كان للقرآن وهو يتصدى لإثبات القضية الكبرى أن يعتمد على الوجدان . وإنى أرى الذهن فى إثبات (التوحيد) هو أوسع المنافذ وأصدقها وأدقها .

***

أنسب الآيات التى تناولت قضية التوحيد هى آيات سورة الأنبياء فلنقرأها :

« أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ . لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ! لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ . أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَة . قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ! هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِى . بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » فهل ترى هذه الآيات تركت حجة « ذهنية » يمكن إيرادها للكرّ على مزاعم القوم ثم لم تفعل ؟

« أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنْشِرون » فالإله هو وحده الذى يخلق ويحيى ويُنْشِرُ الخلائق من الأرض ، فهذا مقطع من مقاطع الاستدلال بكلمة واحدة يدور بها الذهن فى استعراض سريع للأرض وكائناتها للبحث عن حىٍّ مخلوق واحد لغير الله فلا يجد . وإنه للدَّليلُ الاستقرائى بعينه ! ذلك الذى بنى عليه (بيكون) الفلسفة الاستقرائية الحديثة . . وإنه للدَّليل المفضّل عند المربين وعلماء النفس .

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » وهذا مقطع آخر من مقاطع الاستدلال فى كلمة واحدة أيضاً . . وإنه للدليل التطبيقى بعينه ! أحد ضروب الأدلة الكبرى ، يطبق فيه العقل فى ظروفه المتسعة ما يدركه من لوازم تعدد

الرياسات وفساد الأمور إذا تولتها أيد متعددة سيكون بينها بالطبع ما يكون بين المتعددين ، ولا يمنع خلافهم وتنافسهم وتحاسدَهم أنهم آلهة فى طباع مختلفة عن الآدميين . فإن التصور البشرى لا يستطيع أن يجرد الآلهة من صفات الناس ، لأنه لا يملك غير منطقه هو ، فهو معذور ؟

« فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ذلك موقف وجدانى فيه انفعال وتقزز من تلك الدعوى وتنزيه لله عما وراءها من أزمات ومحرجات . وهو موقف معترض للإسراع بالتنزيه ، تعود الآيات بعده إلى الاستدلال : « لا يُسأل عما يفعل وهُم يُسألون » وهذا مقطع آخر فيه ضرب عظيم من ضروب الاستدلال هو الدليل العملى الواقعى ، وهو كذلك أحد ضروب الأدلة الكبرى وله فى الفلسفة العصرية مقام كبير[1] إذ به تسير الحياة العملية وهو محور السياسة . .

فما دام الواقع أن جميع الآلهة المزعومة مَلَكَ الناسُ أن يواجهوها بالمسئولية والمحاكمة فلا يصح أن تكون آلهة مادامت تقع عليها الدينونة . . ولكن الذى خلق السموات والأرض لا يملك عابد له أن يرفع عينه إليه بتحميله مسئولية ، بل ليس له إلا التسليم والإذعان ما دام عاجزاً عن الهرب من أقطار السموات والأرض ... « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فَلْيَمْدُدْ بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع فلينظر هل يُذهِبَنَّ كيدُه ما يغيظ ! » .

وهل فيما زعمته الوثنيات والإشراكيات شخصية إلهية لم تُسأل ؛ إن آلهة اليونان والهندوس وغيرهما كما وردت فى أساطيرهم ذات صفات عاجزة فيها العبث والغلط والمنازعات التى كان وراءها مسئوليات .

ومثلَ أولئك أو أقلَّ من أولئك كانت آلهة العرب الجاهليين ، فكانوا ينحتونها بأيديهم ويحاكمونها ويجعلونها جُذاذاً ويصلبونها إذا كانت بشراً

---

(١) هو مذهب الذرائع : (البرجماتزم) .

وقد يأكلونها . . كما فعل بنو حنيفة حينما صنعوا صنما من عجوة فلما أصابتهم مجاعة أكلوه . . .

« أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ! » إذًا نحن فى مقام جدل طويل يتسع للرد وقرع الحجة بالحجة وتشقيق الدليل وراء الدليل ، ولسنا فى مقام تسليم بوجدان عن طريق تعريض الحس والقلب للأصداء والأضواء والخطابيات والشعريات والنغمات .

« هذا ذِكْرُ من معى وذِكْرُ من قبلى » وهذا مقطع عظيم أيضاً من مقاطع الاستدلال هو ما يسمونه « الدليل التاريخى » إذ أن التاريخ لم يثبت حياة رسول جاء قومه بغير الوحدانية فلم يكن محمد بِدْعاً من الرسل حينما دعاهم إلى الوحدانية ، ولم يكن المشركون معتمدين على كتاب منير أو أثارة من علم فى دعواهم التعدد . . .

إذاً فقد سد القرآن مجالات القول والاستدلال أمام المشركين حتى أثبت أنهم لا يستندون فى دعواهم إلى أى حق ، وإنما إلى التكبر والجهل والإعراض . وكان هذا الختام « بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ » نتيجة منطقية ذهنية واضحة لمقدمات واضحة أخذت بضروب الأدلة جميعاً ولم تترك مفراً لجدل مجادل . . .

إن المنطق هنا منطق ذهنى دقيق أخذ من موارد الكون والنفس جميعاً ، غير أنه ورد بتعبير القرآن الفنى الجميل المعجز الذى يُدنى البعيد القصىّ . . .

ألم يقل : « فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا » ؟ وما أدراك ما لدَدُ العرب وجدالهم ! « بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ » .

ولكن « إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً » وقد أتاهم من القرآن إعصار من البيان كبّهم على مَناخِرِهم وأذقانهم !

حديث الفلسفة

فى العقل البشرى ثلاث كفايات : كفاية « التأمل » فى الكون والنفس وما فيهما من مشاهد وأسرار ، وهى كفاية أنتجت « الفلسفة » وأكثرَ المحاولات الفكرية للوصول إلى تصور صورة كلية للكون وموجده وتعليل وجوده . وقد اختلفت الفلسفات وتعددت ولم تلتق على رأى واحد .

وكفاية « الإثبات » وهى مرحلة بعد التأمل العام ينزع فيها العقل إلى تأمل خاص فى جزئيات الكون ليخرج من العموميات الفلسفية ، وهى كفاية أنتجت العلم بمعناه « الحديث » المبنى على الحسّ والمدركات الحسية والوصول من ذلك إلى « القوانين » التى يسير عليها الكون فى جزئياته ومركَّباته المادية ونواميسه العامَّة .

وكفاية الاعتقاد : وهى مرحلة الوصول والانتهاء إلى « حكم » على الكون كله وموجده يمتزج فيه اليقين الفكرى والطمأنينة النفسية الوجدانية بعد اجتياز المرحلتين السالفتين ، وكأن هذه الكفاية غاية لسابقتيها ونتيجة لهما ، وبها يدخل الفكر إلى « حكم » عقلى يكون به الإنسان فى « أمن » من الشكوك ومزالق الفروض ، ويصير « مؤمناً » أى داخلا فى عالم الأمن والطمأنينة والإصرار على اتجاه واحد ورأى واحد « دانت » به النفس وجعلته « ديناً » أى نظاماً لحياتها « عبدَّت » به قواها وأخضعتها .

وذلك هو التحليل اللغوى والفكرى لكلمة « الإيمان » الذى هو نتيجة لكفاية الاعتقاد ؛ فما هى مقدمات الإيمان فى مرحلة التأمل والفلسفة ؟

هى هذه كما أراها فى أعماق نفسى وتفكيرى :

أنا إنسان صحا من غيبوبة عدم لا يعرف مبتداها ، فأدرك نفسه وفتح حواسه على ذلك الكون الهائل البديع ، فتساءل بما فيه من إلهام السببية البديهية : من خلق هذا الكون العجيب الهائل بأرضه وسمائه وهوائه ومائه وإنسانه وحيوانه وقواه وقوانينه الدائمة الصيانة له ؟ ومن خلقنى هكذا بديعاً كامل الأدوات لحياتى فى هذا البيت ؟

ثم تساءل : من أدخلنى فى هذا البيت من غير أن يستشيرنى ؟

ومن سيخرجنى منه من غير إرادة منى كذلك ؟

تلك الأسئلة هى أبواب الإيمان بخالق . ومن بين التفكير فيها والأجوبة عليها عرف الإنسان صفات هذا الخالق من علم وحكمة وقدرة وقهر وقدم وبقاء وإرادة ووحدة وغيرها من الصفات ، ثم أحس الإعجاب بذلك الخالق المبدع ، ثم أحس الحب كل الحب له ، لأنه أكرمه ونعمه حين أخرجه من العدم وأسبغ عليه الحياة مع أدوات الاطلاع عليها ، ثم أحس الرهبة والخوف حين مسه الضر والألم ، ثم أدام الفكر فيه . ومن الحب والرهبة والفكر نشأت العبادة . .

أما كنه ذات الخالق وزمانهُ ومكانهُ وشئونه وغاياته فى الكون كله ، فأمور ينبغى للعقل البشرى وهو محدود ألا يخوض فيها حتى يفرغ من إدراك الكون المادى كله ويحل مسائله . . .

تلك هى حدود الإيمان بأساس الدين وهو إثبات الخالق ، فى تفكير بسيط فطرى لا لجوء فيه إلى غيبيات وسمعيات ، وإنما إلى مقدمات عقلية هى « قدر مشترك » فى عقل الفيلسوف وعقل الفلاح ، والحضري والمتوحش ، وهى ما يمكن سلوكه من الطرق إلى تبيين أصول الإيمان بالتفكير . ولا داعى بعد ذلك إلى ما لا يفهمه العقل العام المشترك بين زنوج إفريقية وأقزام الاسكيمو وفلاسفة الشرق والغرب .

البعث والمصير

ولكن ما هو مصير الإنسان ؟ !

ذاك سؤال يكاد يكون له قيمة الأسئلة الأولى عند كثير من الناس . غير أن هناك فارقاً كبيراً بين قيمة الجواب عليه وقيم الأجوبة على الأسئلة السابقة ، لأن الجواب عليه متفرع من الأجوبة السابقة ، ولا يصح إلا إذا صحت هي . بل قد يكفي بعض العقول ويريحها من حيرتها أن تؤمن بالخالق وبالحياة الدنيا وحدها ولو لم يكن هناك مصير آخر يحيا فيه الإنسان .. لأننا لا نستطيع أن نبحث في غايات الخالق ، لعجزنا عن ذلك البحث « وأنّا لا ندرى أشرٌّ أُرِيدَ بمن فى الأرضِ أم أراد بهم ربُّهم رَشَداً » « لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُون » .

وتكفى الحياة والإنعام بها على من خرج إليها وأحسها ، وازعاً للإيمان بالخالق وحبه والتقرب إليه . أما الحساب على الخير والشر ، فالخير جزاؤه فيه والشر جزاؤه فيه .

وهذه نزعة صوفية متفانية متطرفة تشذ عن العقل العام والقدر المشترك ، ولا تتحاكم إلى سنن الخالق وقوانينه فى الفطرة ، ولا تطلب منه أن ينفذ ما كتبه على نفسه وقد « كَتَبَ عَلَى نَفسِهِ الرَّحْمَةَ : لَيَجْمَعَنَّكم إلى يَوْمِ القيامَةِ لارَيْبَ فيه » .

فهى فى تسليم وفناء مطلق ترى أن تفنى فى إرادة الخالق « إمَّا إلى جنة إمَّا إلى نار » .

ونعبده من غير شيء من الهوى ولا للنجا من ناره وعذابه

***

ونعود فنقول : إن كل ما فى الأرض من قرائن يدل على أن الإنسان هو المقصود بالخلقة فيها[١] ، وما عداه فمخلوق له لينتفع به . وله من حياته الفكرية والنفسية والمادية مايشعره بهذا القصد ؛ فإنها حياة سامية ، معقدة غاية التعقيد ، فيها جانب عظيم غير خاضع للحياة الحسية الأرضية ، ويكفى فى سموها أنها حياة متيقظة لنفسها ، متيقظة للدنيا كلها ، باحثة عن أسرارها المخبوءة فيها وراء الأجرام والكثافات ، حالمة بصور علوية لكمالها هى وكمال الدنيا ، تزعم أنها قادرة على تنقيح الطبيعة ، وإعادة الخلقة كلها على وجه آخر أكمل ! وقد وصلت بالفعل إلى بعض مفاتيح الطبيعة عن طريق العلم ، وهى تفكر الآن بجد للوصول إلى المفاتيح الأخرى ، وستصل . والقرآن يقول : « سَنُرِيهم آياتِنَا فِى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقُّ » وقد ابتدأت الآيات فى عالم الآفاق وعالم الأنفس بأعاجيب ، فما بالك بما تنتهى إليه ؟ ويقول : « حتى إذا أَخَذَت الأرضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وظَنَّ أهلُها أنّهُمْ قادِرُون عليها أتاها أمرُنَا لَيْلاً و نَهارًا فجعلناها حصيداً » وتأمل فى قوله « وظَنَّ أهلُها أنّهُم قَادِرُن عَلَيها » فإذا عرفت أن « الظن » هو الأفق الذى تحت العلم والجزم مباشرة ، تبين لك مقدار ما ستصل إليه قدرة الإنسان فى الآباد الآتية ، حتى « يظن » أنه قادر على الأرض .

فهل من المعقول بعد تلك القيمة العظيمة للإنسانية أن تمضى من الحياة كما تمضى الحشرات والبذور من غير مصير علوى يتحقق فيه القصد من حياتها الأرضية التى خلق لها فيها كل ما فى الأرض ؟ إن سنة التطور والترقى التى يقول

---

(١) راجع ما فى [أومن بالإنسان] حول هذا المعنى .

بها العلم الحالى تأبي التسليم بهذه الخاتمة الأليمة لتلك الحياة الإنسانية الرفيعة . .

تقول بعض الفلسفات : إن الحل لهذه المشكلة هو فى القول بالامتداد المستمر فى الأفراد الآتين من النوع . فالكمال الذى ينشده الأفراد و يحلمون به سيتحقق فى النوع . وكأن الإنسانية فى خيال هؤلاء هى المعنى الواحد فى الأفراد . أما أجسام الأفراد فهى أثواب تنضوها الإنسانية فى الأجيال المتعاقبة وتُلْقيها جثثاً ميتة على طريقها إلى غايتها . . .

ولكن فى هذه الفلسفة إهداراً تاماً للفرد وارتداداً بالإنسانية إلى أفق واطىء جداً هو أفق النبات والبذور ، دع عنك أفق الحيوان . ونظرة واحدة إلى إخراج الأفراد من الأرحام بصور متعددة الوجوه ، وشكول مختلفة فى العقول والنفوس — وهذا فى الإنسان فقط — تحملك على الجزم والاعتقاد بأن القصد فى الطبيعة متجه إلى خلق الفرد بالذات ، و إحساسه على انفراد بالحياة التى فيه هو ، وأنه مخاطب وحده مباشرة من « خالق الوجود » .

و إن هذه الفلسفة لتبعث القنوط فى الفرد ، لأنه يشعر معها كأنه مسمار فى نعل الإنسانية ! و إنها لتبعث فيه الشرود والجموح فى الحياة ، لأنه لا غاية فردية له من حياته ، ولا هو يدرى الغاية من وجود الإنسانية كلها . . .

و إذا كانت الشيوعية المطلقة لم ترضها الإنسانية فى الغايات الاقتصادية فتفنى فيها جهود الأفراد للمجموع فناء مطلقاً، حتى فى الدول الشيوعية ، فكيف ترضاها فى غايات الحياة ؟

وفى قنوط الأفراد وفى جموحهم دواع إلى خسة النفس ودناءتها وثورتها على الحياة ، بحيث لا يرجى للإنسانية بعدها ترقٍّ ولا صلاح للحياة الجمعية .

الحق أن الفرد مقصود بالخلق ، مخاطب من واهب الحياة مباشرة بما فيه من الإدراك ، مراعي فيه تمييزه بصورته ونفسيته ليشعر بفرديته وغايته الخاصة

أولا . والقـدر المشترك الذى بينه وبين الإنسانية لايحمله على الاعتقاد بأنه فيها كبذرة فى نوع من الشجر ؛ ولا كمسمار فى نعل ، ولا هو يُشْبِه أخاه كما يشبه الغرابُ الغرابَ ، والنملةُ النملةَ . . . فالفروق بين أفراد الأنواع الأخرى فروق ضئيلة لاتـكاد تميَّز فى الصورة ولا فى الإدراك ، بخلاف الإنسان فإن تنوّع صوره الظاهرة والباطنة أمر محيِّر ! .

ومن أعاجيب القرآن إثبات الفردية واحترام الذاتية ، فى تقريره : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » وقوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وهذا فى الواقع أساس عظيم لحرية الفرد وحقوقه وتبعاته ، جدير بأن ينوّه به ، ولا أعلم أحدا تحدث فيه .

وإنى لأتساءل دائما : ما الذى أوجد فى نفوس الإنسانية ذلك الشعور الثابت بأنها لاتفنى ولا تنتهى حياتها بدخولها المقبرة ؟ ولماذا لم تحملها موحيات الحياة ، على غير هذا الشعور لو أن الأمر كان غير ذلك ؟

ثم لماذا نجد فى خيالنا صورة لحياة كاملة لا قيود فيها للجسم ولا للروح ؟ من أين لنا هذه الصورة ؟ إن كل شىء قد حظى بكماله فى دنياه بغير نزوع منه إلى حياة أكمل ؛ مما يدل على أنه قد خلق للحياة هنا فقط ، بخلاف الإنسان فإنه يشعر كأنه طير مقصوص الجناحين ، لا يزال يحلم بالجو الذى خلق ليعيش فيه

وكيف يؤمن مثل (أديسون) أو (ماركونى) بأنه يفنى فناء لا رجعة بعده ، بينما الأرض مملوءة بآثاره فى الكشف والاختراع ؟

إن العلم يقول إن الأرض ستفنى بفناء الشمس أو انطفائها ؛ فأين يصير ما هنا من الفكر والعلم ؟ وما ذا يفيد الفرد من كمال النوع الإنسانى لو أن الحياة كانت للنوع لا للأفراد كما يقول (نيتشه) وأصحاب مذهب الرجعة إلى هذه الدنيا مرة أو مرارا ، مادام الفرد لا يشعر بذلك ؟

ألا إن هنـاك (ولادة ثانية) كما يعبر الإنجيل ، هى البعث بعد الموت ليوم القيامة والحياة الدائمة الـكاملة . . .

* * *

وإن مصير الإنسانية ليس بالأمر الذى يمر عليه القلم بدون إلحاح فى تركيزه فى العقول وتبيين آثاره فى الحياة وفى النفس . إنه الحياة كلها فى رأى الدين ، والعدم كله فى رأى الإلحاد . وشتّانَ ما بين الحياة كلِّ الحياة ، والعدمِ كلِّ العدم فيما وراءهما من آثار ! شتان بين أن يعتقد الإنسان أنه جنين فى بطن الدنيا سيولد منها ولادة ثانية ، وأن يعتقد أنه سيخرج منها سقطا مَسْبُوتاً هالـكا إلى غير رجعة ! إنها مسألة عظمى فى قيمة الإنسان وفى سكينته واطمئنانه إلى مركزه فى الحياة .

إن الإنسان العادى لايحتمل أن يتلقى القول بأنه مخلوق للحياة هنا فقط ، دون أن يثور على الحياة أو يقنط قنوطاً قاتلاً لحيويته .

لقد وصل القول عند بعض الفلسفات إلى اعتبار الإنسان مظهر الإلٰهية ، أو شرارة من روحها ! فـكيف إذاً ينطمس هـذا المظهر ، أو تنطفئ تلك الشرارة ؟

ثم لنرجع إلى ما يثبته العقل للخالق من حكمة وعدل تقتضيهما ضرورة الـكمال الإلٰهى الذى لايستطيع العقل أن يستغنى عنه كصفة ثابتة للموجود الـكامل ، فنتساءل هل فى الدنيا مع آلامها وشرورها عدل مطلق ؟ يجيب المؤمن والملحد عن ذلك جوابا واحداً : كلا ! ثم يفترقان ، فيذهب المؤمن إلى أن كمال العدل المطلق وراء هذه الحياة ، فى تلك الحياة المثالية التى فيها كل أمثلة الـكمال وأطياف السعادة التى طافت بأحلام جميع الناس وسكنت رؤوس الفلاسفة والحكماء ، أوجدها فى نفس الإنسان إلهام عميق خفى لتتم الصورة العقلية للـكمال الإلٰهى .

وفى هذه المقدمات وفى نتائجها المستمدة من منطق الطبع ومنطق التجريد راحة النفس المؤمنة وسكونها وطمأنينتها .

أما النفس الملحدة فماذا عساها أن تصنع غير طيران خواطرها فى فراغ لا قرار له ؟ إنها لا تملك أن تسقط على قرار حتى تتحطم فتستريح ! ومِلاكُ ماتنتهى إليه أن حياتها كحياة تلك الحشرات والديدان التى تعيش على الروث والعفونة فى الظلمات ثم تموت عليها وتدفن فيها ! ولْتَمْحَ بعد ذلك السموات أو فلتسقط ! ولتكن هذه العوالم الزاخرة بالعلوم والجمال والعَجَب العُجاب لتراها فقط أشباحُ تلك الحشرات الصغيرة والكبيرة من بُعْدٍ فتُقْتَلَ غيظاً كل يوم ألف مرة ، ثم تذهب إلى غيبوبتها الكبرى مع الجمادات كما كانت ! والحياة إذن بلا قصد أو غاية ، والرءوس الإنسانية إذن تفرز التفكير كما تفرز الكبد الصفراء ، أو كما يفرز ذيل العقرب السم ! .

سلام لك أيتها النفوس المعذبة مما أنتِ فيه و إنه لعذاب غليظ ! .

إن الإلهام الذى فيك من الخالق يناديك : أنت المقصودة بالخلق فى الأرض . . . أنت خالدة . . .

« يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي » .

« وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ، وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ! »

« وأقسَموا بالله جَهْدَ أَيْمانهم : لايبعثُ اللهُ من يموت . بلىٰ ! وعداً عليه

حقا ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون . ليُبَيِّن لهم الذى يختلفون فيه و لِيعلمَ الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولُنا لِشىء إذا أردْناه أن نقولَ له : كُنْ ، فيكون ! » .

ثم ما دام كل ما فى الفلسفة فروضاً لا تصل إلى العلم اليقينى ، فما بالنا نترك الإيمان بوجود مصير رفيع للإنسانية على أنه فرض فلسفى ؟ إنه أصح الفروض وأصلحها للحياة الدنيا وأدعاها إلى الإصلاح المستمر المخلص .

وهنا دليل يستنبطه العقل من بين ما أقول : ذلك أن أقرب الفروض إلى الحق فى دنيا الواقع هو ما يدعو إلى صلاحية النفس للحياة و إصلاحها لها ، وما يُحَلُّ به أكبر مقدار ممكن من المشكلات ، وما صح تطبيقه على وجه الشمول بين الناس فى كل مكان وزمان . ذلك مبدأ تسلم به الفلسفة والعلم ومذاهب الأخلاق والعمل . ومصير الإنسانية إلى حياة أخرى أسمى من هذه الحياة هو ذلك الفرض الذى ينطبق عليه ذلك التعريف السابق ، هو لا غيره .

وقد عودتنا الحياة المدنية أنها لا تحترم ولا تُبْقِى إلا ما يتفق مع حفظ قوانينها و يضمن اطراد تقدمها ، فمتى أخلينا الدنيا من هذا الفرض أمام الإنسان فهنالك تكون حالقة العمران . و إذا كانت معرفة مثل الزهاوى أن الإنسان لا يأتى إلى هذه الدنيا مرتين قد حملته على أن يطلق لنفسه العنان فى اقتراف اللذات و يدعو إلى ذلك فيقول :

لا تقِفْ فى وجه لَذّا ... تِك مكتوف اليدين
أنت لا تأتى إلى دنيا ... ك هذِى مرّتين

فما بالنا لو عرف الناس أنهم لا يأتون إلى دنياهم ولا يذهبون إلى مصير آخر ؟ إنهم يفعلون كل جريمة للذة وانتهاز فرصة الوجود الواحد فى هذه الحياة التى ليست حينذاك إلا وليمة أدبها لنا القدر لنتلذذ ونتشهى فيها كما قال الأول :

تمتع من شميم عَرار نجدٍ فما بعد العشية من عرار

وحق لهم أن يفعلوا ذلك ! .

***

«وينبغى أن نعلم ونتذكر دائما أن « الحياة » إنما تحفل غاية الاحتفال بعقليات أكثرية الإنسانية ؛ لا بعقليات هؤلاء الفلاسفة المسرفين . وقطيع الإنسانية يسير بإلهام مركب كما تسير قطعان الحيوانات الأخرى بإلهام بسيط . وإذا كانت قطعان الحيوان لاتحتاج فى حياتها إلى فلسفة لأنها تسير بنظام أشبه بالنظام الآلى ، فإن الإنسانية تحتاج فى سيرها فى الحياة إلى الفلسفة ، ولكن من غير إسراف . فلا يفرضنَّ متكلم أو فيلسوف شذّتْ فيه شعلة الخيال والذكاء وقوة الافتراض ، عقلَه وطريقة إدراكه للأشياء على جميع عقليات الإنسانية المرهونة بالبسائط والسجينة فى أقفاص فولاذية من الضرورات الجسدية . وقد دلت الإنسانية بتاريخها العتيد أنها لاتستجيب لخيال الفلاسفة المسرفين . ومن مصيبة بعض الفلسفات أنها تتخذ الشك دينا ؛ والشك حسن على أنه باب إلى اليقين عند من فى عقولهم رباطات تقفهم عند البديهى ، لا على أنه حالة استقرار ؛ فإنه حينئذ يُجِنُّ ويُشْقِى ويشرد العقل الإنسانى من حياة الإلهام البسيط والمركب . وكل شىء فى الحياة لغز وأُحْجِية ، من ذرّة المادة وصورها وتكوينها وطاقاتها وقواها ، إلى الروح وأسرارها وخفاياها . كل شىء يحمل كل عقل بصير يقظ على أن يقف، أمامه دائراً بأسئلة عنه لاعدد لها . وقدقال (ماكن) العالم الكهربائى : « خبرونى ماهى المادة أخبركم ما هى الروح ؟ »

وقد خابت الفلسفة اليونانية القديمة فى أن تخرج ديناً عاماً يتبعه جميع اليونان ، دع عنك أكثر الناس . وكانت كل مدرسة من مدارسها لاتظفر

إلا بعدد محدود من التلاميذ ، لايلبثون أن يتفرقوا بعد موت أستاذهم أو فى حياته ، من غير أن تقدم إحدى تلك المدارس إلى الناس وازعاً يقوم مقام وازع الوثنية التى كانت تَضِجُّ بها معابدهم . ولا يزال الفلاسفة خائبين فى إيجاد ذلك الوازع الأدبى الذى يحكم الجماعة من الداخل كما تحكمها القوانين من الخارج . ذلك لأن الإنسانية ممدودة بالإلهام الذى يربطها بما وراء الطبيعة ، ولن تستغنى عن وازعه بما تقدمه لها العقول المادية المحدودة بحدود المادة ، إذ هى من جهة حائرة : أى هذه العقول تتبع ؟ ومن جهة أخرى ، هى لاتؤمن الإيمان الدينى بما تصنعه هى ، ولا تعتمد عليه فى رغبتها ورهبتها فى حالة التعبد ، وما تقدمه إليها العقول المادية مصنوع مخلوق أمامها ، فهو أرضى ضعيف غير ممدود بما وراء الطبيعة ، فلا يعزّى ولا يَهُول . وهذا هو ما يسلمنا إلى الحديث عن النبوة وضرورتها فى موضع آتٍ .

حديث العلم

لا حاجة بنا إلى إفاضة القول فى أن العلم بمعناه الحالى — وهو اليقين والإثبات المبنى على التجربة والمشاهدة الحسية — إنما هو من أدوات الإيمان بالخالق المدبر. فلو فرضنا وقالت كل الفلسفات والجدليات التجريدية : إنه ليس هناك خالق للكون ، لظل العقل العلمى وحده يقول بوجود ذلك الخالق ؛ لأن كل ما فى الطبيعة يشير ويصيح بأن له خالقاً عالماً ، يقف أمامه العقل العلمى حائراً دَهِشاً من سر صنعته وتركيبه وإعداده !

واعتقادى أن أكبر خادم للإيمان هو العلم الكونى ، وأن المختبرات « والمعامل » لو أنصف الناس لجعلوها من أقدس المحاريب التى يُعبَد فيها الإله بالفكر ، وينعت بما يليق بكماله وإحاطته بالجزئيات والدقائق !

والإلحاد بين علماء الطبيعة أقل منه فى أى طائفة من طوائف علماء العلوم والفنون الأخرى ؛ ولذلك قال القرآن « إنما يخشى اللهَ من عِبادِهِ العلماءُ » وصَدْرُ الآية يدل على أن العلماء هنا هم علماء علوم التكوين المتأملون فيها ؛ إذ يقول « ألَمْ ترَ أن الله أنزل من السماءِ ماءً فأخرجْنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ، ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمرٌ مُختَلِفٌ ألوانُها وَغَرابيبُ سُود ، ومن الناس والدوابّ والأنعام مختلفٌ ألوانُه كذلك . إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ » وقد شملت الآية علم النبات ، وعلم طبقات الأرض ، وعلوم الإنسان ، وعلم الحيوان ، وهى مجال تجارب « العلم » بمعناه الحديث .

ولو أن علماء الطبيعة يدخلون معاملهم ومختبراتهم ، مستحضرين روح

العبادة ، كما يفعل الناس إذا دخلوا إلى المعابد ، إذاً لتنزل عليهم إلهام وتوفيق ولذّاتٌ لا تفنى .

* * *

والعلم لاسلطان له على البحث فى ذات الخالق ، لأنه ليس من مجال تجاربه فمجاله مايقع تحت الحواس ، وإنما يستطيع أن يستنتج صفات الخالق بنظراته الجزئية فى مواد الطبيعة وطاقاتها وقواها ، وبنظراته الشاملة للقوانين الكبرى التى بُنِى عليها الكون ويسير بها ، كموقف إسحاق نيوتن صاحب نظرية (الجاذبية) حين قال :

« إن خالق هذا الكون على علم تام بعلم الميكانيكا » !

وعلماء الطبيعة إن ألحدوا فى إله الكنيسة ، فلن يلحدوا فى إله الطبيعة الذى يجدون يده وعلمه وراء كل شىء ، فيتلقون منه أسرار التكوين .

ومن المؤسف أن إله الكنيسة فى أغلب الأديان غير الإله كما يدركه العلماء فى الطبيعة . . . هو إلهٌ بشرىٌّ يتشكل فى أجساد البشر فى بعض الأديان، خاص بقبيل من الناس فى بعضها الآخر ، محب للدماء فى البعض الثالث ، محب لعذاب الناس وفناء أجسادهم فى البعض الرابع ، معقد فيه ناسوت ولاهوت وأقانيمُ متعددة فى البعض الخامس . . . وهكذا وهكذا ، مما يعذَر معه العلماء السائرون مع الفطرة إذا لم يؤمنوا إلا بمن يجدون يده وحده فى الطبيعة . .

وهنا يمتاز الإسلام امتيازاً رائعاً فى تقديم صورة للإله هى أسمى ما يمكن أن يدركه عقل علمى عن الكمال الإلهى مع بساطة وتجريد مطلق من ملابسات المادة ، واستيعابٍ كاملٍ هو سر الفطرة وطابعها العام ، مما يأخذ بنواصي جميع

الناس ، علمائهم المنتهين وجهالهم المبتدئين ومَن بينهما فى آفاق المعرفة والإدراك ، فى القطبين ، وفى خط الاستواء ، وفى الشرق والغرب .

والواقع أن كل الأديان الإلٰهية قدمت هذه الصورة التى يقدمها الإسلام ويدركها العقل . ولكن يد التحريف ، وحب التأويل ، وتزيّدات الكهان ، وعوامل الفناء التى لحقت الأديان ، وتقلبات الحوادث بنصوصها الأصلية ، هى التى مسخت الصورة الرائعة الكاملة التى قدمها الرسل عن الإلٰه كما أوحى إليهم .

* * *

لقد وصف الإسلام الإلٰه وصفاً منتزعاً من عمله تعالى فى الكون ، وهو وصف يرضى جميع الناس ، فوصفه بأنه جبار قهار ، ورحيم لطيف ، ومنتقم ورؤوف ، إلى آخر الأسماء الحسنى ، ليرضى أمثال زنوج أفريقيا ، ومغول التبت وأجناس المجاهل الذين لا يعبدون الإلٰه إلا إذا كان مخيفاً جباراً ، ولذلك يصورون آلهتهم بصور هائلة ذات رؤوس وأيد وأرجل عدة ، وليرضى تصور أمثال اليونانيين الذين كانوا يتخيلون آلهة متعددة للرحمة والجمال والقوة والحب والحرب وغيرها .

والإسلام يقول لهؤلاء وهؤلاء : ربكم واحد ، له جميع ما تتصورون من الصفات الحسنى التى استمدتها عقولكم من الطبيعة وتعارفتم عليها ، فالتقوا جميعاً فى رحابه بعبادة واحدة وأسلموا وجوهكم وقلوبكم إليه . « فأينما تُولوا فثمَّ وجهُ اللهِ إنَّ اللهَ واسعٌ عليمٌ » ، « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله » ، « هو الله الذى لا إلٰه إلا هو عالِمُ الغيب والشهادة هو الرحمٰن الرحيم » ، « هو الله الذى لا إلٰه إلا هو الملكُ القدُّوسُ السلامُ المؤمنُ المهيمنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ . سبحانَ الله عمّا يشركون ، هو الله الخالقُ

البارئ المصوّر . له الأسماء الحسنى يسبّح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

* * *

ولبساطة العقيدة الإسلامية ووضوحها وقوتها وتمشيها مع بداهة الفطرة ، لم يجد الإلحاد طريقاً إلى الذين اشتغلوا قديماً بالفلسفة والعلم من المسلمين ؛ لأنهم كانوا مزوَّدين بتلك الصورة الواضحة البسيطة من قضايا الدين ، وكانت الفروض التى قرأوها فى الفلسفة اليونانية والهندية والفارسية وغيرها فروضاً ناقصة أو معقدة أو مختلة لا تنهض أمام ذلك اليقين الفطرى الذى يستطيع الفلاح والفيلسوف أن يفهماه ويعتقداه بكل راحة وطمأنينة فى الإسلام .

والعكس عند غير المسلمين ، فقد كان كل فيلسوف أو عالم طبيعى لابد أن يكون « هرطيقاً » لأنه يمد يده لتغيير ما فى الطبيعة وحل ماعقده الله ، ولذلك كان كل من يدرس الفلسفة أو العلم مطارداً من السلطة الدينية ، لأنها تعلم أن العقيدة الموروثة ستزلزل أمام التفكير ؛ ولما خابت المطاردة ، نظراً إلى نزوع الناس وتطور الزمان ، وهجوم العلوم ، زعموا أن الدين قلبى وجدانى فقط لا أثر فيه للتفكير ، وإنما يستند إلى الشعور ؛ ليقولوا بعد ذلك إن الإنسان يستطيع أن يجمع بين متناقضين أحدهما يسكن فكره ، والآخر يسكن قلبه ! مع أن أساس الدين قائم على التفكير ، وإلا ما لزمت حجة الله أحدا من خلقه ، مادام فكره لم يعقل ولم يفهم وهو منصف ، بل مادام فكره ينقض ما يأتى به الدين فى بعض الأحيان .

وقد بينّا سالفاً أن المسلمين ورثوا هذه الفكرة الباطلة مؤخراً من أرباب الأديان الأخرى ، مع أن الإسلام قائم على التفكير ، وحجته العقل ، ومعجزته عقلية دائمة تسير مع رشد الإنسان وتقول له : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ،

« والّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ! »

« قُلْ إنّمَا أعِظُكُمْ بواحدة : أنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُم تَتَفَكّرُوا »

وآفة الإسلام هى جهل أكثر المسلمين بأصوله وتفصيله ، واتباعهم القضايا التى لم تمحص وتنطبق على بيئتهم وما فيها ، وتسليمهم بالنظريات الغربية فى الدين كما يسلمون بالمسائل العلمية المادية .

وأحسب أن أكثر قادة الفكر والمصلحين الغربيين لو أتيح لهم أن يطلعوا على الإسلام الصحيح لتغيرت أحكامهم التى أرسلوها فى مسائل الخلاف بين الدين والعلم . ويكفى دليلا على ذلك مقال فلتير فى مارتن لوثر : « إنه لا يصلح أن يحل نعل محمد . . . » مع أن فلتير لم ينصف محمداً ؛ للسيرة المشوهة التى لم يتهيأ له أن يعرف عن محمد سواها ، ومقال جوته لمحدثه عن الإسلام : « إذا كان الإسلام كما وصفت فنحن كلنا مسلمون » .

ومن قرأ كتاب (الزنجية تبحث عن الله) لبرناردشو ، يدرك أن (شو) ارتفع بمحمد والإسلام إلى قمة الأنبياء والنبوة . وسيرة « جوته » تدل على أنه أعجب بالإسلام ، ولذلك شرع فى تعلم العربية وفى تأليف « رواية » عن محمد وقد مدح أسلوب القرآن وطريقته ككتاب دين . وكلمة جوته التى أشرنا إليها سابقاً تدل على أن أى عقل متمرد قد يجد سلامه وطمأنينته فى الإسلام . ومقال كارلَيل عن رسول الإسلام لايغيب عن بال أحد ممن قرأ كتابه (الأبطال) .

وهكذا وهكذا مما لا مجال لذكره هنا ، ومما يبين قوة غزو الإسلام للعقول المتمردة والآراء الفلسفية ، ومما لا يصح معه إدخاله مع غيره فى مسائل الخلاف بين العلم والدين .

واعتقادى أن الإسلام هو الذى يستطيع وحده فى هذا العصر أن يحمى الإيمان من أن تجرفه تيارات المادية والإلحاد ، وهو الذى يستطيع أن يُقِرّه

فى كل نفس كما هو فى الطبيعة البشرية بجانب « نزعة الإثبات » التى أنتجت العلم و « نزعة التأمل » التى أنتجت الفلسفة ، بحيث يعود الإيمان باعث فخار بين الناس كما كان ، وكما يفتخرون الآن بالعلم والفلسفة ؛ لا كما يغضى بعضهم منه حياء إذا قيل عنه إنه مؤمن . وترجمة هذا القول عند الجهال بالعلم والدين معا : إنه مخرِّف . . .

وقد تراكمت عُقَدٌ خفية فى نفوس أهل هـذا العصر حول الدين ؛ لأن كثيراً من الذين ينتسبون إليه حملوا عليه ميراثاً كبيراً من الخرافات ، ومن تضييق الواسع ، ومن غباوة بعض رجاله الذين لا يعرفون المهمة الأصلية فيه ، ومن تحويل التدين إلى نوع من العصبية الذميمة (والهستريا) المنفعلة المغفَّلة عن حكمة الله فى اختلاف الإنسانية فى الآراء والمعتقدات .

وكم هى كبيرة جناية الرموز والطقوس وثياب رجال الدين وشاراتهم وسِماتهم التى تميزوا بها من غيرهم ! إنها جناية تحويل الملكية العامة إلى احتكار . . . وجناية إقامة السدود والقيود على الطريق الواسع الذى يوصل كل شخص إلى الله . . . وجناية تحديد أبواب معينة لا يحل لأحد أن يجتاز إليه من غيرها . . . وجناية إقامة حراسة وخفارة عليها من فئة معينة ، ربيت تربية خاصة منفصلة عن تربية بقية الناس ، لايدخل أحد إليه إلا بإذنها . . . وجناية تحديد بقع ضيقة من الأرض لا يَحِلُّ التعبد إلا فيها ، بعد بخور وعطور وطبول وزمور . . . كأنهم يستحضرون عفريتاً من الجن إلى حفلة زار !

وقد أطلق الإسلامُ الدينَ من كل هذا الذى ألصقه به الأطفال والمجسِّمة والمشبِّهة ، وجرد محيط العبادة من التماثيل ، والصور والرموز ، وجعل الأرض كلّها مكان عبادة ، وأعاد إلى الطبيعة قيمتها كمحراب دائم للصلاة ، وجعل

روح الدين فى الشارع والسوق كروحه فى المسجد ؛ ففى السوق والشارع عبادة عملية ، وفي المسجد عبادة نظرية هى موقف تصفية وجَرْد لشئون الحياة كلها ولم يجعل طبقة معينة تحتكر شئون الدين وتلبس زيا خاصا بها ، بل حتم على جميع معتنقيه أن يكونوا علماء به ما أمكنهم العلم ، ورأى لأئمته أن ألَّا يتزيَّوا بزى خاص بهم ، حتى لا يشعر الناس بانفصال حياة الدين عن حياة الدنيا .

ولو فهم الناس أن الدين فى الشارع والسوق أهم منه فى المعبد لتغير وجه الحياة وسيْر التاريخ ، ولحلت المشكلة التقليدية الموروثة المعنونة « الدين والدنيا »

***

وأؤكد أن كثرة حوادث انفلات المتعلمين من العقيدة الدينية ليست ناشئة من أن عقولهم لم تقتنع بالأفكار الأولية الرئيسية فيه ، وإنما منشؤها أن هذه الأفكار الرئيسية قدمت لهم فى هلاهل من الخرافات والمتناقضات والألغاز ، ولأنهم وجدوا أن تاريخ رجال الدين مع الأسف الشديد تاريخ مملوء بالجمود ومواقف العداوة للعلماء الطبيعيين الأولين الذين كان لهم فضل الاهتداء إلى مفاتيح العلوم التى نالت الإنسانية منها كثيراً من الخير والبركات ، وصار رجال الدين الحاليون أنفسهم يتمتعون بها و يأخذون بمنافعها كما يأخذ سائر الناس ، بعد أن كان أسلافهم يصبّون عليها شآبيب السخط واللعنات ، و يحرقون و ينكلون بمن يجرؤ على التحدث عنها فى الفلتات بعد الفلتات . . .

ومنشؤها كذلك أن رجال الدين منعزلون عن حياة أكثرية الناس ، لهم لباس خاص ، و يكاد يكون لهم منطق خاص بهم وحدهم . والحياة الحالية حياة عظيمة السلطان على النفوس ، تُغرِى جميع أبنائها بالاندماج فى موجاتها ،

وتعد من يعتزلها وينأى عنها رجلا فيه مَسٌّ ونقص وشذوذ . وكل مخلص للدين مقدرٍ آثاره فى الحياة وفقرَها إليه ، وفسادَها بدونه ، يرى من الخطر أن يظل لرجال الدين ثيابهم الكهنوتية وطقوسهم التى ما أنزل الله بها من سلطان ، لأنها توهم الناس أن الدين فى تلك الثياب والرسوم العجيبة ، ويرى من الخطر أيضاً أن يفرق شباب الأمة فئتين : فئة لعلوم الدنيا منذ التعليم الابتدائى ، وفئة لعلوم الدين منذ التعليم الابتدائى ، وليس بين الفئتين مرحلة يسيرون فيها جنباً إلى جنب حتى يتنفسوا فى جو واحد ويقيسوا بمقياس واحد . وإذا كان هذا التفريق قبيحاً فى أية أمة فهو فى الأمة الإسلامية أقبح القبح ! لأن الإسلام هو المعيشة بالجسد والروح عيشة متناسبة ، وهو دين يجعل التمتع باللذات المحللة عبادة إذا ذكر اسم الله فيها . . . ويجعل خدمة العلوم الدنيوية المفيدة فرضاً يحاسب الله على إهماله ، ويطلب من الإنسان أن يعيش عيشة رحبة عميقة بكل قوة فى تكوينه . فلماذا التفريق فى التعليم وفى الناس تفريقاً يوحى إلى النفوس بمعان من التعصب والانحياز ، ويلقى فى رُوع الناس أن حياة الدين منفصلة عن حياة الدنيا ؟ !

إن اليوم الذى توحد فيه برامج التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية فى جميع المدارس المدنية والمعاهد الدينية بحيث تحتوى البرامج على التربية الروحية التهذيبية والعلوم المفيدة للجميع ، ويوحد فيه الزى بين أبناء الأمة جميعاً سواء أكان عمامة للجميع أم أى لبس للجميع ، هو اليوم الذى تصير فيه الحياة الفكرية والروحية مزيجاً مؤتلفةً فيه جميعُ عناصر الحياة اللازمة لكل نفس بدون تكلف أو احتراف .

وهذا هو ما كان عند الجماعات الأولى من المسلمين فى زمن الرسول وخلفائه . فقد كان الرسول جندياً مع جنوده ، وعاملاً بيده مع عماله ، وعابداً

وحاكما ورجلا يعيش بجميع قوى جسده ونفسه ، يلبس جميع ألوان ثياب قومه ، ولم يكن يتميز على أصحابه فى شىء من السمات الظاهرة . فمن تبعه صار يلبس مثله . ولذلك كانوا كلهم فى مظهرهم رجال دين ودنيا يتفاضلون و يتمايزون بالعقل وكثرة العلم لا بالسمات و الشارات . فمن كان عنده علم من الدنيا ، أفتى فيه و بذل منه وعرفه الناس به فقصدوه من أجله ، ومن كان عنده علم من الدين أفتى فيه و بذل منه وعرفه الناس به فقصدوه . وليس وراء ذلك فارق ما . فلا جَرَم بعد ذلك ألا تكون هناك شُقّة خلاف وهوة شقاق بين الدين والدنيا عند المسلمين الأولين بمثل ما هما عند المسلمين المتأخرين الذين ورثوا ميراث هذا الخلاف من أمم الغرب ، وزعم المبطلون أنه أصل عندنا كما هو عندهم .

وقد كان من الواجب — لو فطنت الأمم الإسلامية — أن تظل الدراسات الكونية ضمن نطاق العلوم التى تدرس فى المعاهد الدينية ، كما كان الشأن عند المسلمين فى الدولة العباسية والدول التى تلتها إلى أن جاءت نظم العصر الحديث فى عهد محمد على . إذاً لظل العلم بما فى الدين وما فى الدنيا وحدة غير مجزأة ، يخرج الإنسان المتحلى بها كامل القلب والعقل ، تلتقى عنده الثقافات ويَمْرُن على التوفيق بينها ، و بناء الحياة الاجتماعية عليها . فما كان عند المسلمين سبب يدعو إلى التفريق فى المعاهد و إخراج علوم الدنيا عن نطاق الدراسات الدينية .

وقد ظل (الأزهر) ، وجامع (النجف) ، والزيتونة ، وجامع القيروان ، ومساجد بغداد ، ومعاهد الشام يدرس فيها الفلك والحساب والرياضيات والطب والطبيعيات والموسيقى إلى أن أتى العصر الحديث .

وقد كان المتعلم لا يخرج إلا من هذه المعاهد وأمثالها . ولذلك أخذ محمد على — منشىء الدراسات الحديثة فى البلاد العربية — أغلب أفراد بعثاته

إلى أوربا من طلبة الأزهر ، إذ كانوا هم الطبقة المثقفة من الشباب . وقد كان بعض العلوم الدينية يدرس فى عهد محمد على فى المدارس التى أنشأها للهندسة والطب وغيرهما .

ولكن جمود بعض المشايخ فى عصر إسماعيل، وامتناعهم عن إدخال العلوم الحديثة بنظمها الأوربية فى الأزهر ، هو الذى جنى على الإسلام كما جنى عليه امتناعهم عن إنشاء قانون مستمد من جميع مذاهب الشريعة الإسلامية يساير روح العصر الحاضر ، ويكون متناولا ما جدّ فى الحياة من مشكلات ومطالب . حتى اضطروا (إسماعيل) إلى إنشاء محاكم تحكم بغير الشريعة الإسلامية .

إن الأوربيين اضطروا إلى انتزاع دراسة العلوم الكونية من أحضان الأديرة والكنائس ، لأنها لم تكن تسمح بالاعتراف بالحقائق التى يخيل إليها أنها تهدم تعاليمها ، بل كانت تئدها فى مهدها ، حتى جاءت الثورات الإصلاحية التى ألزمت الكنيسة حدودها ، وجعلت الناس يدخلون الكنيسة بعقل خاص ، ومعاهد العلوم بعقل آخر . ونحن المسلمين ولله الحمد لم تحدث عندنا معارك وخصومات بين الفريقين تجعل العلاقات بينهما مستحيلة ، وليس فى ديننا ما نخاف عليه من حقيقة كونية ، بل بالعكس ديننا يخدم بالعلم الطبيعى، فلا يصح أن نفرد هذا بمعاهد خاصة وذاك بمعاهد أخرى ، بل الواجب أن يسير التعليم كله فى مجرى واحد إلا فى مرحلة التخصص .

وفى هذا تدارك سريع لحالة تخشى عواقبها على الدين والأخلاق ، وفيه توحيد وتوجيه لقلوب الشباب وعقولهم إلى مثل أعلى واحد ، وفيه توكيد لذلك المعنى السامى العظيم : وهو أن الدين عندنا عقل وعلم ، والعلم عندنا دين وخلق .

« وبعد » فإن عبء المسلمين فادح ، وحسابهم عسير أمام الله والحق والبرّ

بالإنسانية ، لأن إهمالهم إصلاح نفوسهم وتثقيفها و إعدادها بما فى الإسلام لأداء رسالته العالمية ، هو الذى يجلب على الناس كل المشقات والمصائب والحيرة والضياع ، وهو الذى يخرج من حظيرة الإيمان كل عقل غربى كبير ، بما يقرؤه من المذاهب الفلسفية الشاردة ، و بما يلمسه من وجوه الخلاف بين قضايا العلم و بعض نصوص دينه .

ومن الغريب المؤسف أن القائمين على الشيوعيـة أو الفوضوية مثلاً يجاهدون فى سبيلها جهاداً مستميتاً لينشروها و يجعلوها دين الناس و يحسبون أنفسهم أصحاب رسالة يجب أن تتم وتشمل الأرض جميعها . . . بينما المسلمون الذين عندهم علاج كل نـكبة فى العقل أو فى النفس أو فى المال يجهلون مهمتهم ولا يؤدون رسالتهم كما كان أجدادهم الأقدمون يؤدونها و يموتون فى سبيلها على ضفاف الـكنج وأسوار الصين وشواطئ بحر الظلمات ، وهم يعتقدون أنهم يؤدون إلى الناس أعظم خدمة وأ كبر مِنَّة تطيب بها نفوسهم عن اقتحام ديارهم وثل عروشهم وهدم أصنامهم الحسية والمعنوية ! .

إن إنسانيـة الشرق والغرب لا تزال حائرة ترسـل روادها وأرصادها « للبحث عن غد » يشرق عليها ضحاه وهى فى واحة السلام والطمأنينة . . . لاتزال « زنجية تبحث عن الله » ! . والمسلمون الذين أسـعدهم الله بمعرفته و بالطمأنينة و بالشعور بالإخاء الإنسانى لايشعرون بتبعاتهم الثقيـلة نحوها ، ولا يزالون يعيشون لأجسادهم وشهواتهم وحدها . . . بل إن الثقة بما عندهم قد ذهبت عنهم . وقاتل الله الجهل وحياة الفسولة والتفاهة ! .

حدود بين الله والإنسان والطبيعة

إنى أدعو إلى ابتداء التفكير فى الطبيعة وما وراء الطبيعة على ضوء التأمل فيما استطاعت قوى الخَلْق والمحاكاة والإنشاء المودَعة فى الإنسان أن تصنعه وأن تسخّره ؛ لأن ما أنشأه الإنسان وما وصل إليه من أسرار الطبيعة جدير أن يغير منطقه التجريدى القديم ونظرته للعلاقة بين الله والإنسان والطبيعة .

ولكن ظلال التجريدات والفروض القديمة لا تزال تسيطر على عقول كثير من الباحثين الشرقيين فى مسائل الوجود ، ولا يزالون خاضعين فى تفكيرهم الدينى والفلسفى لرجال المدرسة القديمة التى لم تتصل بأصول الثقافة العلمية الحديثة التى تلتقى أيدى العلماء فيها بيد الله وتأخذ منها أسرار الخلق والتكوين .

ولو أن العقل البشرى الآن ، اصطنع ذلك الأسلوب الذى ندعو إليه ، وهو أسلوب تجديد النظر فى الوجود على أساس أعمال الإنسان الحالية ، إذن ما وجد بعضه ضرورة إلى اعتناق مذهب (وحدة الوجود) الذى أخذ به كثير من العقول الصوفية والفلسفية القديمة والحديثة التى أوغلت فى بحث قد أثبتت الحياة أنه لا طائل وراءه ، بل وراءه الهلاك والبلبلة والضياع والاختلاط . . .

فقد غزا هذا المذهب عقول بعض الفلاسفة والصوفيين الذين آفتهم أنهم طلبوا أن يدركوا الله وما وراء الطبيعة بالحواس التى يدركون بها الطبيعة ، وبالعقل البشرى المخلوق لإدراك النِّسبَ بين كائنات الطبيعة وحدها أولا . فلما عجزوا عن رؤيته تعالى وإدراكه — كما هو المنتظر — ذهبوا إلى أنه لابد أن يكون الله هو هذا الوجود الظاهر والباطن كله ، وأنه يحل فيه ، وليس له

وجود منفصل عنه . . . وهكذا تجد الوثنية التى حاربتها الأديان والفلسفات السامية ، سنداً عظيما من هذه الفلسفة التى تعيش فى ظلال هذا المذهب . .

وهكذا تتحول الطبيعة كلها إلى أصنامٍ آلهةٍ !

وهكذا تعود الحجارة والبقر والخنفسان والخنازير معبودات إلٰهية ! . . .

وهكذا يصير القاتل هو المقتول ، والسارق هو المسروق . . . ولا حدود بين الأضداد والمتناقضات . . .

***

وبدهىٌّ أن النظرة الأولى تهدى إلى أن الله غير الطبيعة وغير الإنسان ، وأن هناك انفصالا بين الخالق والمخلوق .

ولـكن النظرة البديهية هذه كثيراً ما يطمسها التأمل الذى لا يقنع بالظاهر الواضح ، ولا يرضيه الوقوف عند ما يوحيه المنطق العملى ، بل يلذ له أن يلجأ إلى الفروض ويحاكم فـكرة الله إليها . . . ولا شك أن هذا إيغال مهلك ليس وراءه إلا الضياع والبلبلة .

وقد ذهبت بى نظراتى فى النفس والوجود إلى أن الوقوف على سطح الوجود هو المنطق الذى لا نملك غيره ، ما دمنا محدودين فى أرض ضئيلة الحجم جداً بالنسبة إلى الوجود الأعظم الذى نرى منه بعض سطحه حين نسرح أبصارنا فى السماء . . . فكل إيغال وراء ما توحيه البداهة يكون وراءه الشرود والجموح والبلبلة . فالإحساس بانفصال النفس عن الـكون ، وانفصال الله عن الـكون تبعاً لذلك ، هو تلك النظرة البديهية التى لا نملك غيرها إن أردنا أن نسير مع المنطق العملى للحياة ، وأن نحل أكثر مشكلات الوجود ، وأن يطّرد تقدمنا البشرى ، وأن تُحدَّد المسئوليات والتبعات ، ولا تختلط الحدود ولا تسقط التـكليفات ، ولا تهدر قيم الأخلاق .

أما اعتناق مذهب (وحدة الوجود) فمعناه الاختلاط والتشويش والفوضى والتباس المقاصد وذهاب الاختيار بين الخير والشر.

وبديهى أن الحياة الاجتماعية وصلاحها هى الفاصل فى الأمور الجدلية، أو ينبغى أن تكون كذلك. والحياة الاجتماعية تأبى هذا المذهب كل الإباء ولا تحتمله لحظة! لأنه أسرع أسباب انهيارها ودمارها! فإن الإنسان سيكون بهذا المذهب إله نفسه، لشعوره بأنه جزء من الخالق... وسيكون الآلهة بعدد المخلوقات أو بعدد الناس على أقل تقدير!

وإن الحياة الحالية لم تحتمل شطط الإنسان وجبروته ومتابعة هواه، وهو يعتقد أنه مخلوق تافه مسئول، له خالق سيحاسبه حساباً عسيراً... فما بالكم به حين يعتقد فى نفسه أنه إله أو جزء من الإله!

لقد ضربَ الإنسانُ العالَمَ بالأحقاد والمدمِّرات، وأشعل الحياة وهو يشعر أنه طفل عاجز قاصر... فما بالكم به إذا حسب أن إرادة نفسه هى من إرادة الكون كله؟!

إن الأمر أعظم مما يتصور هؤلاء المفلسفون المأفوكون! وإن الحياة العقلية لم تقبل أن يكون للكون آلهةٌ متعددة من العقلاء... فكيف بهم إذا كانوا مجانين؟!

***

هذا جدل يعتمد على النظر وتقليب المسألة أمام المنطق التجريدى الذى يصطنعه أصحاب المذهب، ويعتمد أيضاً على التحاكم فى هذه المسألة إلى المنطق العملى الذى توحيه الحياة الاجتماعية.

ولو كان الأمر مقصوراً على هذا الأسلوب لوجد أصحاب هذا المذهب مجالا للمناقشة ورد القول وتشقيق الجدل، وما كان طمعنا فى إفحامهم إلا بقدَر..

ولـكن عمدتنا فى دحض هذا المذهب هى حجة بالغة من العلم الحديث صاحب المعجزات التى تخضع لها جميع أعناق البشر ، ولا يستطيع أن يمارى فيها الممارون من صُنّاع الكلام وحاذقى الجدل .

حجة يبعثها التأمل بيقظة فى أسرار الأعمال الإنسانية العظيمة فى الطبيعة : تلك الأعمال التى استحالت إلى آيات من آيات الـكون ، يمر عليها الناس وهم عنها معرضون ، كما يفعلون مع آيات الله فى الآفاق . . .

وهى تَسَلُّط العقل البشرى « باللاسلـكى » وتحـكّمُه به فى الآلات وإدارتها ورصدها من بعد شاسع ، وانفصال تام بين العقل الإنسانى والآلة . . فقد رأينا (ماركونى) يضىء مكاناً فى استراليا وهو فى أوربا . . . ورأينا الدبابات تزحف والطائرات تطير وتحارب وليس فيها سائقون . . . وإنما يديرونها ويتحكمون فى تحريكها من بُعد .

ورأينا « الرادار » تلك العين والأُذن السحرية العجيبة التى تلتقى ويلتقى الإنسان بوساطتها بالأحجام على مئات وآلاف من الأميال ، مع أنها فى العهد الباكر من اكتشافها والانتفاع بها ، وقد انتفعت بها انجلترا فى مقاومة الغارات الألمانية فى (معركة انجلترا) .

ورأينا أن ما يحدث لتلك الآلات ينتقل إلى ذهن الإنسان الراصد لها فى لحظة ؛ فهو معها بعلمه وقدرته وإرادته ، يصرّفها كيف شاء ، مع الانفصال التام والبعد الشاسع بينه وبينها . وهو يكوّنها ويركبها ويجعل فيها عقلا وروحاً تحركها وتصرفها . وما دام قد أعطاها قوانينها فلا لزوم لوجوده فيها والمـكث بجانبها أو الحلول بها .

أفلا تقاس على هذا الأساس علاقة الله بالـكائنات ؟ وتُحَل بذلك تلك المشكلة التى خلقتها عقول من لم يروا لهم سـبيلا غير اعتناق مذهب وحدة

الوجود ؟ بلى ! فإن ما يقدر عليه الله لايذكر بجانبه مايقدر عليه هذا الإنسان الضئيل العاجز . ولاشك أن من كمال الإنسان أن يقدر على التصرف فى «مخلوقاته» من بُعد ، وأن يرصدها ويرقبها ويوجه إرادته إليها وهومتحرر منها منفصل عنها لايشعر بضرورة الاتصال بها والتقيد بحيّزها الضيق . . . فأوْلَى برب الكمال المطلق والقدرة المطلقة والإرادة القاهرة أن لا يكون عليه لشىء سلطان وألا يتقيد بقيد . « ألَا يعلمُ مَن خَلق وهو اللطيفُ الخبير ! »

وفى ذلك آيةٌ حديثة يرسلها الله من التأمل فى أسرار الإنسان ووحى أعماله فى الأرض .

لقد أقام اللهُ من الإنسان دليلاً ووسيلة لحل كثير من العقد والمشكلات الفكرية فى تصور الإلهية ، وخلقه صورة مقرِّبة لبعض شئونه الجليلة التى يتعجل المتعجلون فى الحكم عليها بعقلهم القاصر ، وفى مدى عمرهم المحدود الذى لايقاس إلى الأبد الكبير الذى يُظْهِرُ اللهُ فيه شئون الخلْقَ والأمر فى أدوارها وأوانها الموزون المقدور و « ولايعجل لعجلة أحدكم » كما قال « محمد » سيد الأصفياء العارفين بشئون الله ! .

إن الحياة لم تنته ولم يبدُ أنها تقرب من نهايتها التى تتضح بها غاياتها وتنضج ثمراتها ، فلا يليق بالفيلسوف أن يحكم حكمه النهائى عليها قبل انكشاف غاياتها . وأولى به أن يرصد الأدلة التى تكشف عنها الأيام وتضعها على طريق الأحياء يوماً فيوماً ؛ لترشد السالكين وتشير لهم إلى الأمام .

ومنذ أن اهتدى الإنسان إلى وجود القوة التى يظهر أنها « مادة » الطبيعة الأولى ، وهى الكهرباء ، وبعد أن شرع يدس يده وفكره فى هذه القوة الخفية ، ويستخدمها ويحرك بها ما يشكّله من المادة ، ومنذ أن ظن أنه سيصل إلى أن يكثّف هذه القوة بدرجات مختلفة تحت ضغوط معينة ، ليخلق

منها العناصر المادية المتبلورة الثلاثة والتسعين . . . منذ ذلك كله ، ينبغى للمفكرين التجريديين أن يتربصوا أفعاله وكشوفه ليبنوا عليها أحكامهم ومنطقهم ، وأن يقتصدوا فى تلك الفلسفات الفرضية والشطحات الصوفية التى لانهاية لها ، لأنها « ذاتية » وليست « موضوعية » موضوعها ذلك الكون المادى العجيب الذى استمددنا منه عقولنا وأحكامنا ، وأن ينادوا معنا إلى (الصوفية المادية) التى تعجَب وتتعبد بالفكر فى الطبيعة الظاهرة وأعمال الله وأعمال الإنسان فيها ، وتتعلق بالمحسوس قبل التعلق بغيره ، حتى تفرغ منه قبل نهاية رحلتها على الأرض ، ثم تلتفت — إن قدر لها البقاء على الأرض بعد هذا الدور — إلى ما وراء الطبيعة لتبحث فيه وتحكم عليه . . .

***

وإنى ما أنكرت أن يكون لهذا المذهب تاريخ طويل ومعتنقون كثيرون من الفلاسفة والصوفية القدماء والمحدثين ، وما أطلقت القول فى نقضه بغير حجة أو برهان ، وإنما سقت ما اهتديت إليه واعتقدته دليلا حديثاً كافياً فى دحض هذا المذهب . وسواء علىّ بعد ذلك أكان (محيى الدين ابن عربى) (وسبينوزا) (وهيجل) وغيرهم من معتنقيه أم من مخالفيه . فمن شاء فليأخذ هذا الدليل الذى سقته من حقائق الحياة العلمية الحاضرة ويستأنس به فى بحث العلاقة بين الله والكون ويرفض على ضوئه مذهب الوحدة ، ومن شاء فليتركه على شرط أن يأتى هو بدليل .

ومن الواجب أن أذكر أننى كنت أثناء التفكير فى (أومن بالإنسان) يحوم فكرى كثيراً حول مذهب الوحدة ، ويكاد يقبل عليه تحت ضغط الإعجاب والتقدير للروح البشرى الخالق والجهد العلمى والعملى الأخير

الذى سلك الإنسانَ فى عداد قوى الخلق والتكوين والإنشاء التى يدير الله بها الكون . المادى فى الأرض . . . فلم يكن من المستبعد فى الوهم حينئذ أن أنزلق بفكرى إلى الأخذ بهذا المذهب الذى يجعل الانسان جزءاً من الخالق الأعظم ومظهراً للوجود الكلى قائما به .

ولكن هذا الدليل قضى فى نفسى على بوادر التفكير والتوجه إلى هذا المذهب الذى لايكاد معتنقه يتماسك أمام نفسه وأمام الكون قلقا وحيرة حين يختلط فى فكره شعوره بأنه جزء من الخالق ، وشعوره بأنه مخلوق عاجز ، وحين ييأس من أن يرى الله بنفسه مع أنه جزء منه ، وحين يظل فكره دائراً حائراً فى مَتاهات السموات والأرض يبحث عن « مصدره الأول » فلا يراه إلا فى المظاهر المادية التى كان يراها نفس الرؤية قبل اختلاطه وشعوره بازدواج الشخصية بين خالق ومخلوق وخالدٍ وفانٍ . حينئذ يبتدئ ينشد لنفسه ويغنّى على هواها باعتبارها جزءاً من الله ، كالحلاج وابن عربى . وهنا ابتداء التجديف و « الجنون الدينى » والبيان الملتبس الذى تختل فيه مقاييس المنطق الإنسانى ، لأنه يصير خليطا من منطق الخالق المتوهَّم والمخلوق الواهِم . . .

ومذاهب الحلول والاتحاد والوحدة غالبا يكون اللجوء إليها بعد الإعياء فى البحث عن الله ، وابتغاء رؤيته ، والاقتراب منه ، والأخذ عنه مباشرة . وما ينبغى لأفكارنا المحدودة العاجزة الرهينة المسجونة فى أقفاص الأرض الضئيلة بالنسبة للكون أن تطلب هذا المطلب الأعلى الذى لاتدركه الأبصار والأفكار ولا يعلم قدره غيرُه . وقد قال محمد سيد العارفين : « إن الله احتجب عن الأنظار ، وإن الملأ الأعلى ليطلبونه كما تطلبونه » .

والنظرة الأولى الفطرية الساذجة ترى انفصال النفس عن الطبيعة وانفصال الله عن الجميع ، لأنها أول درجات الفكر فى الطبيعة ومصدرها . ثم بعد ذلك يبتدىء الفكر الفلسفى الذى يشك فى كل شىء ، ويطلب مبدأ كل شىء ، يحيل هذا البديهى إلى شىء معقد . فيطلب مصدر الطبيعة : فتارة يقول إنه لا مصدر لها ، بل هى مصدر نفسها ، وتارة يقول إن مصدرها ممتزج بها ، وتارة يقول إن مصدرها منفصل عنها . ولذلك أكرر القول بأن النظرة الأولى تهدى إلى منطق الانفصال ، ثم يأتى التأمل الذى لا يقنع بالظاهر الواضح فيطمس هذه النظرة ، ويوغل فيما وراء سطح الوجود ، ويلتبس عليه كثير من البديهى فلا يرى بداهته ، بل يطلب له الأدلة والبراهين .

وحقاً يتحول كل بديهى إلى غير بديهى حين يوغل الفكر فيه ويتعمقه ، ألا ترى أن بعض المدارس الفلسفية تزعم أن حقائق الأشياء غير ثابتة ، وأن المحسوس لا يجوز اتخاذه أساساً ، وأن الموجودات كلها أوهام ، وأنه ليس فى الكون كله حقيقة ثابتة ؟ حتى لقد قال بعضهم « لو وجدت حقيقة ثابتة واحدة لاتخذتها أساساً أبنى عليه جميع الحقائق ! » ألم تسمع بالنظرية الجديدة التى تبطل «السببية» ، وتقول إن الكون يسير بالاحتمالات التى لا نهاية لها ! ألم تسمع بذلك السفسطائى اليونانى الذى أنكر وجود جدار أمامه وقال إنه وهم من الأوهام ، فلما تحداه مناظره أن يقوم ويخترقه إن كان زعمه صحيحاً ، قام وجرى إليه حتى اصطدم به ، فكانت النتيجة ارتطام جسمه وتمزق أوصاله ..

إن الفكر البشرى كائن عجيب متمرد ، له قدرة هائلة على الذهاب فى أى اتجاه ، وخلق عوالم صناعية وخيالية لا وجود لها . وصخرة النجاة أمامه هى الاستمساك بالعيش على سطح الحياة ، وأخذ الحياة بدون تعمق وتعقيد لما تحت البديهى السطحى حتى يبقى لنا شىء ثابت نرتكز عليه . إنما يباح لنا فقط

إدمان التعجب مما نرى، وتقليب أفكارنا وأيدينا فيه بقدر ما نستطيع أن نسخّره ونستغله ونتغلب عليه ، حتى لا تهددنا عوامل الشقاء والفناء .

وقد ظل الناس خاضعين لفلسفة الفروض والتجريدات ، يدورون فيها دوراناً عقيما ، حتى أتى دور الفلسفة التجريبية التى نادى بها (فرنسيس بيكون) ودور الفلسفة الإثباتية التى ثبت قواعدها (ديكارت) فكانت النتائج الباهرة فى العلوم والمعارف الطبيعية والنفسية التى فتحت على الناس بركات من السماء والأرض ، وما تزال تفتح . وقد أقبلت البشرية على هذا الاتجاه العلمى الاثباتى فعاشت به عيشة رحبة زادت ثقتها فى نفسها وحياتها ، وفتحت عليها كنوز الآمال السعيدة واستدبرت عالم الفروض الفلسفية والخيالات والشك فيما لا طائل وراء الشك فيه ، ولا قدرة على الاستغناء عنه ، واتخذت بدهيات الحس والفكر قواعد ارتكاز ، فثبتت أقدامها على الطريق إلى الله . . ووجدت وحدة منطقها وجهدها تتحقق فى هذا الطريق .

* * *

ويجب أن نتخذ الطريقة (الموضوعية) فى بحث المسائل الدينية كما نتخذها فى المسائل العلمية ؛ ولا يجوز أن نصطنع الطريقة (الذاتية) إلا فى (الفن) وحده.

إن مجال العلم هو البحث فى الكون المادى فيما يستطيع أن يصل إليه بأدواته المعروفة ليصل من وراء ذلك إلى (القوانين) التى تسير بها الطبيعة ليرضى كفاية (الإثبات) فى النفس البشرية . وليستطيع أن (يعتمد) على هذه القوانين كحقائق لا تتبدل ولا تتغير . وليرضى فى النفس كفاية (الاختيار والحرية) بين القوى المادية العمياء الجامدة المجبورة .

والمجال الأصلى للدين هو نفس مجال العلم ، هو الكون المادى أيضاً ، ولكن لا على الاعتبار السابق ؛ ولكن على اعتبار آخر هو استنتاج (صفات)

صانع هذا السكون من السكون ؛ ليرضى فى النفس كفاية (الاعتقاد) وهذه هى الفكرة الأصيلة فى الدين . فكرة الاعتقاد بصانع لهذا السكون ، له من العلم والقدرة والإحاطة بكل دقيق وجليل ، ما ظهرت آثاره ، وما وضح فى قوانينه من الدقة والإحكام وعدم التناقض .

والذى لا شك فيه عند العقول الموزونة التى لم تنحرف ولم تشذ عن الفطرة ؛ أن الإحكام والدقة والجلال والجمال والتنويع والتفريع والاطراد وغيرها من صفات السكون ، توحى وتُلزِم كل عقل غير مدخول أن وراء هذا السكون عقلاً أعظم منه يدبره ويقوم عليه . له من العلم والقدرة والحكمة والإحاطة والهيمنة والقهر وغيرها من صفات الكمال ما يليق بالقِوامَة والتدبير لهذا السكون الرحب الذى لا تدرك نهايته الأوهام البشرية . هذه هى الفكرة الأولى فى الدين وهى فكرة لا شك (موضوعية) موضوعها السكون كله ليستنتج الناس منه صفات خالقه . وهى صفات لا تختلف باختلاف جمهرة العقول .

إن الدين بهذا الوضع (نتيجة) حتمية للعلم وضرورة لازمة (للألفة) العقلية التى لا بد منها فى العقل العلمى . ورجال الدين بهذا الوضع هم رجال العلم الطبيعى وحدهم ، لا غيرُهم من صناع الفروضِ والأوهام المفتونين بزخرف السكلام يرسلونه فارغا إلا من نزعات شعرية و بدوات خيالية .

ورجل العلم لا يبحث فى ذات الله وكُنْهِها ، لأن الطريقة العلميه عوّدته أن يتدرج فى أبجدية الحقائق ، وهو للآن ، ولِماَ بعد الآن بكثير من الآباد ، لم يفرُغ من إدراك موجودات الطبيعة المحدودة فى الأرض الضئيلة ، ولم يدرك الروح الإنسانى ، ولا أصل الحياة البيولوجية ، بل لم يدرك المادة ، حتى إن « ملكن » أكبر علماء الكهرباء المعاصرين قال : « خبرونى ما هى المادة أخبركم ما هى الروح » .

ولذلك ينبغى للمتأملين التجريديين ألا يسرفوا على أنفسهم وعلى الكون كله ، فيحاولوا إدراك ذات الله قبل أن يدركوا ذات أنفسهم وذوات الأشياء المادية الضئيلة المحيطة بهم .

إن الإنسانية إن قدر لها أن تدرك شيئاً من كل أولئك فلن يكون هذا الإدراك إلا عن طريق العلم الذى فُتحت أبوابه ، وأقبلت حقائقه التى سوف تكوّن المنطق الإنسانى الحديث الذى لا يقيم وزناً للتأمل الفلسفى أو الصوفى أو الشعرى الشارد الجامح ! .

***

ولا خشية من أن يجرّنا قياس اتصال الله بالكون على اتصال العقل الإنسانى بالآلات و إحاطته بها عن طريق اللاسلكى و إدراكه إياها من بُعد ، إلى التورط فى التجسيم والتشبيه .

فهذا الدليل الذى سقته لا يستلزم شيئاً من هذا ، فليس اتصال الله بنا وبالكون بآلات ورواصد ، كما هو الحال فى اتصال الإنسان بالآلات والآفاق باللاسلكى ، و إنما هو اتصال مباشر بالعلم المحيط والقدرة التى لا تحتاج إلى وسائط وأدوات . . . واللاسلكى فى معرض هذا الاستدلال ليس إلا مثلا مضروباً يوضح لتلك العقول التى لم تر لها طريقاً لتصور كيفية اتصال الله تعالى بالكون ، إلا الإيمان بوحدة الوجود وعدم الانفصال بين الله والطبيعة ؛ إذ أن خيالها ضاق عن تصور هذا الانفصال .

وخلاصة هذا الدليل أننا إذا كنا نرى العقل البشرى العاجز يتصل بمخلوقاته من الآلات بعد أن كوّنها وأعطاها قوانينها ، و يتصرف فيها و يتحكم بها باللاسلكى وهو متحرر منها بعيد عنها غير ممتزج بها ؛ فما بالنا لا نرى العقل

الأعظم الذى نعرف قدرته ، يستطيع أن يتصل بنا بعلمه وقدرته بدون حاجة إلى الاتحاد والامتزاج ؟ ! .

وما ندرى ماذا يأتينا به العلم من وسائط الاتصال ؟ لعله يجعلنا نتصل بالأشياء ونؤثر فيها بدون حاجة إلى وسائط اللاسلكى وغير اللاسلكى . لعله يكشف فى النفس قوة قادرة على ذلك . وهذا لا شك كال لنا ، وليس بمستحيل فرضه عقلا . . .

فقبيح بنا أن يضيق تفكيرنا حتى نتصور خضوع رب الكون لما نستطيع نحن العجزة الضعفاء أن نتحرر منه ونستغنى عنه ! .

إننا نحس فى أنفسنا قدرة على الخلق والتحرر وتنقيح الطبيعة ، فلماذا نفرض الله تعالى شبه سجين فيها لا يستطيع من قوانينها فكاكاً ، مع أنه واضع هذه القوانين ، إذ لا جائز أن تكون وضعت نفسها ؟ ! .

إن أحلام الحرمان التى تطوف برءوس العجزة المحرومين لا يرضيها من القدرة والغنى إلا أن تأمر بالطعام ، فيكون الطعام ، و ببساط الريح فيكون البساط ، وبحكّ (خاتم) فيحضر المارد القدير ، و بنظرة فى (البللورة السحرية) فترى ما استتر واستكنّ فى طوايا السموات والأرض ! .

فإذا كان هذا هو ما فى خيال الناس عن قدرة القادرين من العجزة المخلوقين ، فكيف بما فى الخيال حين يتصل بالله الذى يمسك السموات ويحبس البحار و يدير ملايين الملايين من الكواكب فى أفلاكها بغير اختلال وصدام ، و يؤلف بين القوانين المتضادة فى الطبيعة حتى يُخْرِج منها « هرمونى » وتناسقاً عجيباً ! !

إذن فلا تجسيم ولا تشبيه ولا مخابر ولا معامل كيمياء وفيزياء ولا نظّارات

ولا قارورات ولا اتصالا بسيطاً أو غليظا ، وإنما هى إرادة عالمة قادرة تقول المعدوم « كن » فيكون ! .

لقد حكى القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام سأل الله : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ! قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ — اذبحهن وقطعهن — ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا » وقد فعل إبراهيم فأتته ساعية من غير أن يرى شيئاً يجمعها ويركّب أعضاءها ويهندس وضعها ! .

لقد توهم إبراهيم أن هناك « كيفية » للإحياء ، وأن هناك أدوات ووسائل للخلق والتكوين ، ولذلك سأل ربه سؤاله . ولكن تبين له بعد أن دعا أشلاء الطير المذبوحة المطروحة فى كل أفق فإذا بها مقبلة حية ، أن إيجاد الله الأشياء ليس إلا بتوجيه الإرادة إليها ، فإذا هى كائنة .

النّبوّة والوحيُ والمعجزة

هل كانت حياة الإنسان العقلية والروحيــة الأولى تسمح أن يتركه اللهُ من غير أن يتصل به ويرشده ، ويبين له بعض ما خفي عليه ، وخاصّة إذا كان هذا الخفاء حول أهم غاية فى الحياة العقلية والروحية ؟

هل يجوز أن يستمر الـكون كله صامتاً أمام الإنسان لا يكلمه فيه أحد بكلمة غير إنسانية ؟

أيمر كل الناس هكذا على الدنيا سائرين إلى القبور وأبواب الغاية المجهولة من غير أن يسمعوا حديثاً إلهياً عما وراء الحياة ؟

هل يجوز عقلياً ووجدانياً أن يحتجب ربنا عنا ، من أول إنسان فينا إلى آخر إنسان ، هذا الاحتجاب القاتل ؟ !

أيمكن أن يكون هذا من إلهٍ نرى رحمته وسعت كل شيء ، وأعطت كل كائن بحسب وسعه ؟ وأليس من مطالب العقل أن يتحدث مع الله مباشرة وأن يراه إن أمكن ؟

أيكون أوجدنا لنثبته بمنطق عقولنا فيقتلنا هو بشوق قلوبنا إليه شوقاً لا أمل وراءه فى رؤية أو حديث ؟ !

أكان من الممكن أن يستقل عقل الإنسان فى طفولته المنحطة بالاهتداء إلى الحق الفاصل فى قضايا الوجود وما بعد الطبيعة ؟

ماذا يُغْنِي العقلُ وحده وماذا يُرشد إزاء هذه الألغاز والمعمّيات التى رآها الإنسان فى دور طفولته ؟ إنه لا يزال غير مغنٍ ولا نافع عند كثير من الناس

حتى فى زمن العلم والسيطرة على الطبيعة ؛ فكيف يغنى فى زمن الكهوف والأَحْراج والغابات ؟

أجل إن العقل الكامل نفسه يشعر أنه فى أشد الحاجة إلى أن يقول له قائل من غير نفسه : إن مقاييسك على حق ، وأنك لست وحدك الذى ترى الخير خيراً والشر شراً ، بل إن الكون كله معك فى هذا الرأى ، و إن للكون غايات كريمة . وذلك لايكون إلا عند طريق الوحى الذى يأتى من العالم الأعلى

و إلا فسيجد نفسه وحيداً فريداً بوصفه أداة حُكْم ، وسيضطر من لم يعتقد بالوحى أن يقول : إن النظام والحق والخير وما إلى ذلك كلها اعتبارات بشرية ، خلقها فكر الإنسان ، وليس لها إلى (عقل الكون) نسَبٌ ، بل ليس هناك عقل ولا ضمير للكون ، لأنهما من مخترعات العقل البشرى . وحينئذ تكون الحيرة القاتلة : حيرة الإنكار التى هى أشد سوءاً و بلبلة من حيرة الإثبات ، إن كان فى الإثبات حيرة . .

فكيف يغنى العقل فى زمن الجهل المطلق بالنفس و بالطبيعة ، وفى زمن عبادة الأحجار والأبقار والثعابين والجِعْلان والخُنْفسان ؟

وماذا كان العقلُ فى تلك الأزمان ؛ إنه لم يكن سوى انطباعات بسيطة من تجارب الحياة المحدودة التى كان الإنسان يحياها ، فكيف يقدر أن يستقل بأمر البتّ فى أمر الإلهية وصفاتها وكمالاتها ؟

إن الطفل لا يدرك فى أول أمره من أمه غير ثديها وهى تلقمه إياه . . . ثم ينكشف له جسمها ومعناها عضواً عضواً وشأناً شأناً حتى يدركها كاملة . . . ولو تركته منذ ولادته لمات جوعاً ولذهب وجوده ولم يدركها . وكذلك الإلهية مع الإنسان ، ولله المثل الأعلى . .

هل يمكن أن ينشأ طفل كامل من غير أم أو من فى معناها ، تقول له قولها المعروف وترعاه حتى يصل إلى سن الرشد فيستطيع أن يستقل بأمره بنفسه ؟

أنا لا أستطيع أن أتصور الإنسان الذى هو أكرم ما فى الأرض يعيش هكذا وحده ، وخصوصاً فى عصور طفولته ، من غير أن يقول له قائل من وراء الغيب كلمة التوجيه والتسديد .

ولو كنا نرى نوعاً آخر محترماً يعمر الأرض ، ويتولى الخلافة عليها ويسخرها لقلنا : لعل هذا هو المقصود بالخلق ونحن نعيش على الهامش . . . ولكننا لم نر سوانا خليفة يصح أن يكون مقصوداً بالخلق . . . فكيف يقصد وجودَنا الخالق ، ثم يتركنا من البدء للنهاية من غير كلمة !

كلا ! لن يثبت العقل على رأى ثابت فى « الله » إلا إذا سمع صوتاً منه . . . وإلا فمن الحكم بين العقول المختلفة ؟

كلا ! لم يكن الإنسان الأول ليؤمن بأنه شيء ذو خطر فى الوجود إلا إذا قيل له ذلك من غير عالمه . . .

كلا ! لن يصبر الإنسان على احتمال الحياة بلذاتها وآلامها من غير أن يسمع من يقول : احْىَ ، واعمل ، واصبر . . .

الإنسان ! ما الإنسان ؟ إنه كل شىء فى الأرض أمام نفسه وأمام الوجود الظاهر ؛ فكيف يُهمَل و يترك سُدًى من غير نداء خفى بعيد ؟ !

إن الإنسان نفسه كبيرُ الرحمة فى بعض أفراده الذين لا يستطيعون سماع استغاثة حىٍّ دون أن يبكوا رحمة له ، ويقولوا له : لبيك لبيك . . . فما بالُ الرحمن الذى ثبتت رحمته ثبوتاً محسوساً ، تنظر إليه عقول عُبّاده الباكين الدائمى البكاء له ، السائرين فى ظلام الحياة وآلامها ، اليقظين لكل فكر وحس وحركة فى الوجود ، الحاملين آلامهم على ظهورهم وأرواحهم على

أكفهم ، الحائرين بين مذاهب الأفكار واتجاهات الطباع واختلافات الميول يقولون له : ربَّ الحياة ! قل لنا كلمة واحدة : ما هو الحق ؟ قل لنا بصوت منك أو بلمحة أو بحجة قاطعة ، حتى نجزم به حزم الحس مع جزم العقل . . .

إن جزم العقل وحده فى هذه المسألة الكبرى لايدخل الطمأنينة الكاملة التى لا بد منها فى حياة الإيمان يا مولانا ! فاكشف لنا الحجاب ، واهتك الأستار ، وأرِنا ما وراء هذه الكثافات والأجرام والأحجام . . . أقول ما بال الرحمن لا يسمع دعاء ممثلى الإنسانية الحائرة المقتولة بالشوق والشك ، المصروفة بالإفك ، فيقول لها بين فترة وأخرى كلمة فاصلة يشير لها بها إلى الطريق ، مادامت هى القطيع المقصود ، وما دام الاهتداء إلى الله هو المعنى الذى يصح أن يكون غايةَ الله من خلق الإنسان ؟

هكذا وقف كل نبى نشأ فى حيرة من ضلال قومه قبل أن تتصل به شرارة الوحى ، لا يرى نوراً ولا يسمع شيئاً يقول له : من هنا الطريق . . .

هكذا وقف كل نبى فى الظلمات وبكى . . . بكى لكل شىء . . . بكى للسماء والأرض والحجر والنجم والحى والميت . . .

فإذا كان منطق الإنسان الكامل ورحمتهُ يحتمان أن مثل هذا الباحث الحائر الباكى ، يجب أن يُرْحَم ويخاطب ويغاث من لهفته ، وخصوصاً إذا احتاجت الظروف لحركة تطهير الأرض من ضلال وفساد ، فأظن ظناً يقرب جداً من العلم أن هذا المنطق وتلك الرحمة يقولان : لا بد لله أن يتكلم ! أجل يحكمان على رب الوجود أن يكلم ذلك الرجل الحائر الباكى لعدم الاهتداء إلى حقيقة نفسه وحقيقة الوجود . . . ولن يحمل إنسان عبء النبوة والرسالة الفادح إلا إذا سمع هذه الكلمة . . . ولن يتحدث باسم رب الوجود ويقول :

« أُوحىَ إلىَّ » إلا إذا سمع حديث الله له . . . وإلا كان أكبر مجرم ظالم كاذب ، والكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتاً كما يقول « كارليل » فلا يستطيع أن يبنى أمة . . . « ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افترى عَلَى الله كَذِباً ، أو قال أُوحِيَ إِلَيَّ ولم يُوحَ إليه شىء . . . »

***

تلك هى النبوّة ! أوقن بها كما أوقن بسنن الطبيعة المطردة ، وأنتزع حججها من صميم النفس الإنسانية ، منطقها ووجدانها وأحاسيسها . فكما أومن بأن الشمس يجب أن تظهر للنبات والحيوان لكى تعطيهما وجودهما الجسمانى ، أومن بأن الله أظهر للإنسان جانباً من نوره حتى يأخذ وجوده الروحى ، وذلك كان فى أول النشأة ودور الطفولة البشرية .

إننا الآن نرضى بصمت الطبيعة المطبق اتكالاً على أن الله كلم بعض أفراد النوع فى الزمان القديم . وأنا شخصياً أظن أننى ما كنت لأومن بفكرة ثابتة عن الدين لو لم أوقن بأن الله كلم محمداً ومن حكى عنهم محمد من الأنبياء . وكأنى أحس أن الله كلمنى شخصياً حين كلم بعض أفراد نوعى !!

أجل ! كيف أثبتُ على الإيمان به دائماً ، مادام هو لم يأبه لى ولا لنوعى ؟ أمن المعقول أن ينظر الإنسان إلى الله دائماً ولا يبالى هو به ؟

إن الله رحمة . . . إن الله محبة . . . إن الله كرم . . . إن الله كمال . . . كما تثبت ذلك صناعته فى الخليقة فلا يجوز أن يكون متكبراً على الإنسان خليفة الأرض إلى هذا الحد !

« وما قدَرُوا اللهَ حَقَّ قدره إذ قالوا ما أنزل اللهُ على بشَرٍ من شىء » فالنبوة كمال من كمالات الله كما يقرر القرآن فى هذه الآية . ولا يعرف قدر الله حق قدره من ينكرها .

إننا الآن فى زمن رشد عقلى يلوح لنا معه أننا نستطيع أن نستقل بعقولنا فى الاهتداء إلى الله و إلى الخير . ولـكن يجب أن نتذكر حالة النشأة والطفولة التى كنا عليها . . . حين كنا نعيش بالأوهام والأحلام ، ونرى الـكون أمامنا كتلة مبهمة ، ومجموعة ألغاز ومعميَّات وأحاجٍ . . . حين كنا نعبد الحجر والبقر والجُعلان . . . حين كان العـالم مملوءاً أمامنا بالأشباح التى تملأ الهواء والنار والسحاب والبحار . فهل كانت غاية خلق الإنسان متحققة فى تلك الدهور والأحقاب بالعقل الإنسانى على بساطته ؟ ومادامت غاية خلق الإنسان كما يحتمها العقل هى معرفة الخالق وعبادته ، فلا بد أن تتحقق دائماً ، وقصور عقل الإنسان فى المـاضى ما كان يسمح بتحققها ، فلا بد أن يتولى الله إرشاده عن طريق الاتصال ببعض أفراده .

إن الفكر المادى يوحى بالأنانية وحب الحرص على الحياة ، ويقدم المصلحة الشخصية قبل أى شىء آخر ، فلن يؤْثِر على نفسه ولن يخفيها فى سبيل غيره . . . ولـكن الفكر الروحى المطبوع على الإيمان والتفكير فى مصالح الغير وحمل أعباء الإنسانية هو الذى يشعر بأنه لابد أن يبذل من نفسه لبناء الحياة . . هو كقلب الأمومة يالنسبة لأولادها تفنى لهم وتستغرق فيهم . والفكر المـادى والفلسفة العقلية المستندة إلى القضايا المـادية لم تفلح فى قيادة الناس ، وإنمـا أفلح الفـكر الدينى ، لأنه استند إلى ما وراء الحياة الطبيعية ولم يأخذ طريقه فى جهاد الوثنية كطريق فلاسفة الإغريق ، قضية نظرية وجدلا مدرسـياً أو [أكاديمياً] ، وإنمـا أخذه عن طريق التبتّل الروحى والسلوك والجهاد والبساطة . وجهاد النبوات فى سبيل توسيع آفاق العقل البشرى بتوسيع تصور معنى الإلٰهية وتجردها من المـادة والصورة ومخالفتها لـكائنات الأرض ؛ جهاد

عقلى عظيم لم تصل إليه الفلسفات ، لأنها لم تكن بتكليف وإيمان وسماع صوت من العالم الأعلى .

وهنا ظاهرة واضحة : وهى أن جميع الذين حاربوا الوثنية والتجسيم وبذلوا لذلك الدماء لم يكن أحد منهم من الفلاسفة والعقليين الماديين ، بل كانوا جميعاً من البكّائين العابدين المجاهدين بالسلوك والدعوة . ولقد اختفت الفلسفة اليونانية حقباً طوالا ، ولكن الأديان لم تختف واحدة إلا لتحل محلها أختها .

والذى يتصفح القرآن وقصص الأنبياء يعجب من الأساليب المختلفة التى دعا بها كل رسول قومه بجهاده وثورته وصبره وتحمله الأذى . ولم يقتصر على عرض قضايا دينه العقلية بدون ثورة بها . وهل أفادت الفلسفة اليونانية العقل الإنسانى العام بإنقاذه من الوثنية ؟ كلا . ولو سيطرت هى على العالم لظلت الوثنيات فى الدين تجارى المعلومات المادية والتقدم الحضارى . وأكثر من هذا كانت الوثنية سبباً فى الإضرار بالمسيحية ، لأن بعض المبشرين بها اضطروا للتبشير بالتثليث ، لأن العقل اليونانى ما كان يقبل الوحدة فى الألوهية ، وهو الذى جعل لكل قوة من قوى الطبيعة إلٰهاً . ولا تزال كلمة « الآلهة » تشيع فى الأدب الأوروبى وتسيطر على عقلية الغربيين على العموم . وقد كان العقليون ولا يزالون باردين هادئين ، لايؤمنون بما يقولون إيماناً يحملهم على الجهاد له ، والفناء فى سبيله ، والثورة به ، يكتفون برصد الظواهر وتسطيرها فى الصحف ، أو تعليم بعض التلاميذ .

ومن قرأ صور الإلٰه فى أفكار كثير من فلاسفة اليونان ، من العدد ، إلى الماء ، إلى العقول السبعة ، إلى النار ، إلى آخر الفروض ، يرى أن محاولات العقل المادى حتى فى بلاد اليونان لم تقدم الصورة الكاملة للإلٰه كما قدمتها النبوّة ؛ فقد بحثت عن الله فى نفسها وفيما حولها ووقفت تبكى له ، وصهرتها الآلام

وأضناها الإخلاص له ، إخلاص الطفل حين يبحث عن أمه و يبكى ، فظهر لها فعرفته وأيقنت بالحق والخير .

وقد نجحت النبوة فى إنقاذ كثير من البشرية من الوثنية ، وفى إعلاء شأن الإنسان ، وفى تعميم صورة الكمال الإلهى ، وفى سيادة الأرض ، فلا يمكن بعد ذلك كله أن نقول إن النبوّة كانت عفواً و مصادفة ، ولا يمكن أن تكون حركة الماديين موازية لتلك الحركة الروحية ، وخصوصاً أيام كانت حركة العقل المادى ضئيلة لاتستطيع أن تقيم قوانين وأخلاقا ، فلابد أن يكون وراء النبوة سند من عالم الغيب .

***

لايمكن أن يستأنف الإنسان عبادة الأحجار والأشجار وغيرها بعد أن وصل إلى التسلط على كثير من قوى الطبيعة ، و بعد أن زال خوفه من قواها بعلم أسرار تركيبها .

ولذلك ختم الله الرسالة بمحمد ، وأعطى الإنسان الطبيعة يسخرها ويتصرف فيها بالتدريج ، كما يعطى الأب ابنه ماله بعد الرشد يتصرف فيه بعلمه وسلطته .

حقا هو قانون الأبوة مع البنوة ، فهو إطراد فى سنن الكون . والطبيعة كلها متشابهة . النشأة العقلية العامة فى مجموع الإنسان كالنشأة العقلية فى أفراده .

لقد استخلص الله خلاصة الحق من تجارب الحياة الإنسانية فى جميع الأمم وأسلمها للإنسان ، ووصاه وصيته الأخيرة وقال له : بلغتَ الرشد ؛ فأمامك الطبيعة ، و إلى اللقاء فى الدار الثانية التى يحكم بها عقلك وعلمك ؛ فاستعدّ لتقدم إلىّ الحساب عما تفعلُه فى النفس والمادة وقواها .

أليس هذا هو قانون الطبيعة مع أفراد الحيوان والإنسان ، ومع أسرهما ؟
إنه هو نفسه بشكل أوسع بين الله والمجموع الإنسانى .

***

قد يقول قائل : إن الوثنية لا تزال دين عدد هائل من الناس ، ولا يزال أكثر سكان إفريقيا الوسطى وجزر المحيط والصين والهند واليابان يدينون بالوثنية وبالقوى السحرية وعبادة الحيوان ، فأين رشد الإنسان المزعوم ؟ ! .

ومع تسليمنا بذلك نقول : إن التبعة ملقاة على عاتق الأمم المتعبدة بالنبوات ، وإنه لتقصير فظيع منها أن تترك بعض أفراد الأسرة الإنسانية هكذا ضائعين من الحياة ، ولو كان الاستعمار يحمل غاية روحية سامية ، لجعل همه الأول هدم الوثنية وتعميم فكرة الوحدة الإلهية . وقد وكل الله الشعب القاصر إلى الشعب الأكبر الراشد ، كما يحدث من توكيل الأب للابن البكر فى الأسرة الواحدة .. فإذا لم يراع الأكبر حُسن الرعاية والإرشاد كان اللوم كله منصبًّا عليه . وستعلم الشعوب المتحكمة العاشقة للمادة وحدها ، كم ستكون تبعتها ثقيلة باهظة ، وجنايتها كبيرة غليظة ، بتركها نفوس الزنوج وسكان الجزر النائية فى المحيطات وجميع الأمم الوثنية من غير حمل لها بالإقناع والإخلاص على ترك عبادة الأوثان ، وعلى سمو الحياة الروحية .

لقد صارت الأرض كقطر واحد بفضل الكشوف الجغرافية ، وأدوات الاتصال العلمية ، وسرعة الانتقال ، فكان من الواجب أن يتلاقى البشر على معان قريبة فى الدين ، ولكن المادية الحالية هى الحائل وهي الشاغل . وعلى أية حال لن تعمر الوثنية طويلا بعد الآن .

***

كانت الأمة من الأمم السابقة تحتاج إلى رسول معين يرشدها فى حياتها الروحية نظراً للقصور العام ، ولكن ميراث الرسل المتروك والملخص فى رسالة محمد يستطيع أن يخرج رسلاً عديدين ينقذون الخاضعين للسحر الأسود والوثنية والمثنوية وغيرها . . ولعلها رسالة مدخرة لأتباع محمد حين يتم نضجهم وكمالهم بعد يقظتهم الثانية هذه ، فإنه ليس هناك كتاب دين حارب الوثنية وأبغضها وحطمها وناقشها من جميع وجوهها كما فعل القرآن . . . وليس هناك أُمَّة أفهمها كتابها أنها منتدبة لحماية عقائد البشر من الوثنية وغوائل التوحيد ، كالأمة الإسلامية .

ويمكن لأى فرد الآن أن يعلم من حقائق الدين وحقائق الطبيعة ما كان يختص بعلمه الكهنة والأوصياء فى الزمان القديم . ويخيل إلىّ أن جهود النبوّات كلها كانت موجهة إلى تفهيم الإنسان قيمة الطبيعة ، وإلى شَغْل عقله بالبحث فيها ، حتى يهتدى إلى مفاتيح تسخيرها ، ويبرَأَ من عبادة ظواهرها وقواها ويعبد بارئها وحده . وقد نجحت النبوات نجاحا باهراً فى ذلك ، وأنقذت الإنسان الذى يسكن الجزء الأهم فى الأرض ، وجعلته هو صاحب السيادة والسيطرة فيها ، وجعلت الأمم الوثنية خاضعة له ، أو ناظرة إليه وتابعة لخطواته ، فلم يعد هناك حاجة إلى بعث رسل مؤيدين مكلَّمين من السماء ، لأن مجال الدين صار واضحاً .

والخلاف الآن على الطقوس المختلفة فى الديانات . وسيكون أقرب هذه الأديان إلى الفطرة والسبيل العلمية ، هو دين الإنسانية الموحَّدة .

***

كلما فكرتُ فى صمت الطبيعة المطبق تجاه الإنسان ، وثبات السماء والأرض أمام حواسه ، وعدم اكتراث الأشياء له ، وعدم وجود ثغرة ينحدر

منها إلى أفق آخر غير هذه المناظر الهائلة الثابتـة . . اعترتنى رهبة من وضع الإنسان هذا الوضع الذى أغلق عليه فيه كل شىء ! وأقامنى الفـكر بين العجز والتعب كما يقول المتنبي :

ومن تفـكر فى الدنيا ومهجته   أقامه الفـكر بين العجز والتعب

ولـكنى أفرض فى بعض الأحيان أن الإنسـان استطاع أن يرقى أسباب السماء بسلّم ، وأنه طار كالريح ، وانتقل كالبرق ، وصار الـكون كله مَزْويًّا بين عينيه ؛ فهل يفيده ذلك شيئاً فى فهم وجود أى شىء ؟ كلا فيما أتخيل . . . لأن الذى ينتقل من متحف أعاجيب صغير إلى متحف أعاجيب كبير ، لا يزيده ذلك إلا دهشة ورغبة فى معرفة الأسباب ! .

وهبوا الإنسان حلل كل شىء فى الطبيعة وركّبه . . . فهل تُذهب قدرته تلك حيرته ودهشـته من إدراك العلاقة بين فـكره و بين الأشـياء ، وفى إدراكه نفسه وقدرتها ؟ كلا ! فيما أتخيل . . . فهو سوف لا يدرك من نفسه إلا أنه آلة خالقة تفعل الأعاجيب . فنحن مهما أدركنا ومهما فعلنا فسنظل حائرين فى معرفة كيف ندرك وكيف نفعل ما نفعل . . . ويبقى وجود كل شىء بعد ذلك لغزاً مغلقاً كما هو ! ! . .

ومن هذا المدخل أدخل إلى بحث « المعجزة الحسية » ، تلك العقبة التى يصطدم بهـا أكثر الباحثين المتشـكـكين فى طريقهم إلى الإيمان بالنبوة ؛ لأنهم يرون فى إيجادها خرقاً للناموس العام الذى ينتظم الطبيعة ، وخروجاً على سنن اطرادها ؛ ويرون الإيمان بالنبوة لا يكون إلا بالإيمان أيضاً بهذا النوع من الأفعال الخارقة لسنة الطبيعة ؛ فيقفون مترددين محجمين عن الإيمان بالنبوة والوحى ، إذ يجدون فى منطقة الإيمان بهما عقبة المعجزات الحسـية ،

فيذهبون إلى تأويل النبوة والوحى بتخريجات لا تتفق مع الإيمان الصحيح ولا مع نصوص القرآن الصريحة ، ولا مع منطق النبى نفسه ومعنى النبوة التى أدركها هو فى روحه وفكره ، وحدثنا عنها ، ووصفها لنا .

فهم يحاولون أن يفهموا الوحى على أنه فيض ذاتى فى النفس الإنسانية ، وحالة إلحاح من فكرة الصلاح والحق على قلوب بعض محبى الإصلاح من البشر بعد إدراك تام للاتجاه العام فى الطبيعة : فيخيل إليهم حين يدركون ذلك أن إرادة رب الحياة معهم ومنطقه فى أفواههم وعقولهم ؛ فيصدعون بالدعوة ، وليس هناك وراء هذا اتصال بينهم و بين الله ولا حديث ولا شىء . وأما الخوارق التى كانوا يُجْرونها فهى أعمال ناشئة من يقظتهم و إدراكهم علماً من الطبيعة لم يدركه غيرهم ؛ فيستخدمون ذلك فى إقناع الناس .

هذه هى خلاصة مقالة منكرى النبوة فى العصر الحديث . وقد ألححت سالفاً فى بيان النبوة كقانون من قوانين النشأة العقلية والروحية ، وأنها أشبه بالعلاقة بين الأبوة والبنوة فى التربيب والإرشاد ، وأنه ليس من المعقول أن تمضى الحياة الإنسانية من أول نَفْس إلى آخر نَفْس من غير سماع كلمة غير إنسانية مما وراء الطبيعة ، و إلا لزم أن تهدر قيمة الإنسان أمام نفسه لأنه لم يسمع حديثاً من الحياة يحدد له قيمته ومكانه . . .

أما المعجزات الحسية فيحدثنا عنها القرآن حديثه القاطع بوجودها ؛ القرآن المعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة ، وعصا انقلبت حية ، وطير خرج من طين ، وعن كثير من الآيات بحديث صريح لا يقبل تأويلاً ولا تخريجاً غير ما يحتمله لفظه . ولم يشر القرآن بأية إشارة إلى أن الأنبياء الذين جرت على أيديهم هذه الخوارق كانوا على علم بأسرار ما يفعلون ،

بل بالعكس يحدثنا أن موسى خاف وفر وولى مدبراً حين رأى عصاه تنقلب إلى ثعبان مما يدل على أنه ما كان يدرى بسر مايجرى أمامه .

إذا فقد حبط قولهم إن تلك الخوارق ناشـئة من إدراك النبى سراً من الطبيعة لم يدركه غيره .

وينبغى أن نتذكر دائما أن كل شىء فى الطبيعة معجز ومحير ، وأن إضافة شىء إلى الطبيعة من أعمال الإيجاد والخلق فى ظروف استثنائية تقضى الضرورة بإحداث حجة حسية دامغة فيها ، تلك الإضافة لاتزيد عجباً ولا تستحق دهشة أكثر من غيرها من الموجود قبلها .

وينبغى أيضا أن نمنع خيالنا من تصوّر الله تعالى خاضعاً لطرق صناعتنا فهو لايحتاج إلى مخابير ومعايير ومنافيخ وآلات ومعامل حتى يخرج شيئا وإنما المسألة بالنسبة إليه هينة . . . وقد وهم إبراهيم عليه السلام ، كما سبق القول ، حين قال له : « رَبِّ أرِنى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى » إذ أنه ظن أن هناك كيفية وأسلوبا محسوساً لإيجاد الله الأشياء ، فلم ير من كيفية الخلق أكثر من الأسلوب الذى نراه كل يوم وكل ساعة فى وجود الأشياء من نبات وحيوان ، وفى تجدد المادة والقوة والطاقة .

فالأمور والأشياء من أولها إلى آخرها معجزات وآيات محيرات ؛ ولو خلقناها بأيدينا لم يذهب ما بنا من حيرة ودهشة كما قدمت فى أول هذا .

أقول هذا وأطيل ؛ لأبين للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد ، وتصدهم عن الإيمان بالنبوة بمعناها عند جمهور الناس ، أن أمرها أهون فى التقدير مما يتصورون ، وأنها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة ؛ لأن الله يفعل مثلها فى كل دقيقة ملايين الملايين .

ثم إن الله تعالى لم يَضَعْ قوانين التكوين ليتقيد بها كالأغلال والأصفاد ، فلا مانع أن يحطمها فى جزئياتها التى يدركها الناس عن قرب فى ظروف استثنائية ، حتى لا تتوهم — كما توهم بعض فلاسفة اليونان — أن الله لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة .

* * *

ما قدمناه من الحديث يدور حول علاقة المعجزة بالطبيعة وسننها المطردة وحول علاقتها بالله موجد الطبيعة . ويبقى حديث حول علاقتها بالناس وعقولهم وآثارها فى الدعوة .

هل هناك ضرورة ظاهرة لإحداث المعجزة ؟

للجواب على هذا ينبغى أن نستحضر صور المجتمع الإنسانى فى عصوره الأولى البدائية الجاهلة المحدودة الإدراك ، الواقفة عند المحسوسات ، الغارقة فى الجهالات ، الموزعة عقليتها بين السحر والمَخْرَقة ، كل أمة فى عزلة عن الأخرى ، لا ترى إلا قطعة محدودة من الأرض وأفقاً ضيقاً من السماء ، ترى ظواهر الطبيعة ولا تستطيع لها تعليلاً ، تأكلها الفواجع وتحصدها الأوباء ، ويستبد بها الكهنة والرؤساء ، وتسير كقطعان سائمة هائمة فى بيداء الحياة ، ليس لها علوم وآداب إلا ما هو فى نطاق ضرورة العيش والارتفاق .

ثم يفاجىء أحد هذه المجتمعات رجل يحاول أن يحطم كل وثن معبود ، ويُذْهِب كل شر ، ويحمل على كل خير ، ويخلع أمته من ماض وتاريخ وسيرة آباء ، ويقول — وهنا الهول والدهشة ! — أنا رسول من الله رب السماء والأرض ، اختصنى من بينكم وألقى علىّ رُوحاً من أمره وكلمنى ! نعم كلمنى ! وهذا الرجل فى الغالبية يكون فقيراً لا مال ولا جاه له ، مما يفتن العامة ويدعو إلى احترام الخاصة .

فمن ذا عساه أن يؤمن مع هذا الرجل من مثل هذا المجتمع المنحط الخاضع لمنطق الطفولة ، الذى لم يدرك الحق بنفسه ؟

أظن أنه لا جدال فى أن من يستجيب سريعاً لهذا الرجل هو العدد الأقل ممن يلبى كلمة الحق لأول سماعه بها . وهؤلاء حتى فى زماننا ، زمن العلم والحرية والديمقراطية ، لا يكادون يبلغون عدداً تصلح معه شئون الأرض ، ويستقر العمران ويتحقق به نمو حركة الفكر والخُلق . فلا بد لصلاح الأرض من صلاح جماهير العمال والزراع ، وهؤلاء هم القطيع الذى يملأ بقاع الأرض ، ولا يستطيع المصلحون أن يحققوا مثلهم العليا إلا إذا تسلطوا عليه ، وملكوا قياده ، وهؤلاء هم موضع عناية الله ووصاياه ، لأنهم لا يستطيعون أن يتفرغوا لإدراك كماله وجلاله ، إذ أنهم مشغولون بالسعى إلى الرزق والضرورات المادية . ويخيل إلىّ أن الله تعالى قدَّر فى وضع النبوات الأولى منطقهم ووجدانهم أكثر من غيرهم من الخواص ، لأنهم هم جمهور الإنسانية ، لا تستقيم أمورها إلا بإرضائهم وإصلاحهم . أما الفلاسفة والحكماء فقليلون كما قدمنا . ولو راعى الله منطقهم المعقَّد ، وإدراكهم المتشعب ، فأرسل الرسالاتِ بأسلوبهم وحدهم ، وجاءت كتب الدين ككتبهم ، إذاً ما استجاب للإيمان غيرهم ، وهم فى الإنسانية قِلّة . .

فلا بد أن نفهم هذا ، لنفهم أنه كان لا بد من وسيلة أخرى بجانب وسيلة المنطق والعقل لإخضاع جماهير الناس فى تلك الأزمان التى كانت أغلب علومها تدور حول البحث فى تحويل عناصر الطبيعة ؛ كقلب الرصاص إلى ذهب ، وحول علوم التخييل ، كالسحر والسيميا ، وكيفية شفاء المرضى بالتمائم والتعاويذ ، وتحضير الجن ، والاستهواء وراء القوى الخفية ، والتحايل على تزويق الأصنام وإنطاقها ، وخلع معانى الحياة وحركاتها عليها ؛ إمعاناً من الكهنة فى بسط

سلطانهم ، وسعياً من العامة وراء غيبوبة الأحلام و بَدَوات الأمانيّ والأوهام .

ولا تزال بقايا كبيرة من السحر والمثنوية راسبة فى أذهان الجماهير فى عصرنا هذا . . « فعيادات » كثير من الدجالين والمشعوذين أحفل بالزائرين من عيادات كثير من الأطباء الذين يعتمدون على العلم والاختبار ، وقبور كثير من المشايخ تقصد للاستشارة والاستخارة أكثر مما تقصد مجالس العقلاء والمجرّبين الذين يعطون الرأى والمشورة التى لا تخطىء . فكيف يهمل الله هذه النزعات الطفلية فى نفوس أكثر القطيع الإنسانى من غير أن يُفْحمهم من طريق الحس و إقامة الحجة الدامغة — فى رأيهم — حسب ما يقترحون ؟ و إذا علمنا أن الغاية من المعجزة غاية عظيمة بل أعظم غايات الحياة وهى حمل كثير من الناس على الإيمان بالله ، و إنقاذهم مما يهدر كرامتهم و يسفُل بهم إلى أقل من درجة البهائم ، وهو السجود لصنم ، واللِّيَاذ به ، و بيع الحرية الفكرية والشخصية . . إذا علمنا ذلك ، تبين لنا أن المعجزة أمر محتّم لتكملة السعى فى سبيل إنقاذ الإنسان .

ولذلك رأى رب الحياة ضرورة تأييد أكبر الحق فى الحياة وهو الإيمان به ، ضد أكبر الباطل فيها وهو الكفر به ، بكل وسيلة ، استجابة لقاصرى الإدراك الذين طلبوا ذلك ممن يتحدث باسمه تعالى ، حتى تقوم الحجة الحسية أمامهم .

***

نعم إن المعجزة الحسية كانت لا أثر لها فى الإقناع عند أكثر من لم يقتنع بالحجج الفكرية ، وأغلب ظنى أنها ما أجريت لإقناع الجميع ، بل لتعجيز المكابرين وأخذ طرق الإنكار عليهم ، حتى لا يفلتوا إلى عذر بعدها ، وحتى يحملوا حملا على الشعور بتعنتهم ؛ ولذلك كانت هى الدور الأخير من حجج الرسل بعد أن

تعييهم لحاجة الناس . فموسى مثلا كما حكى القرآن : دعا فرعون للإيمان بالله
عن طريق العقل والحجة فى أول الأمر ، فلما كذبه وهدده بالسجن . قال : أَوَلَوْ
جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُبِين » وألقى عصاه . . إلى آخر القصة . وكذلك سلك كل
رسول من أصحاب المعجزات ، فهى كانت آخر سهم فى كنانة الرسول أمام
المتعنتين ولم تكن ذات أثر كبير فى حمل بقية الناس على الإيمان كما حكى القرآن .
قال : « وما مَنَعنا أنْ نُرْسِلَ بالآياتِ إلَّا أنْ كَذَّبَ بها الأوَّلُونَ ، وآتَيْنَا
ثمودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بها ، وما نُرْسِلُ بالآياتِ إلا تخويفا » . . .
والجملة الأخيرة من الآية تدل على أن المعجزة لم يكن ورودها للإقناع ، فهى
إنما أجريت لإتمام الحجة وابتذال كل شىء حتى قوانين الفطرة فى سبيل
الغاية العظمى للحياة الإنسانية — وهى الإيمان — فالذى لايقتنع عن طريق
التفكير والمحاكمة العقلية ، بقضية من قضايا الحق ، لايقنعه أن تقلب له
العصا حية ، أو الصخرة ناقة ؛ وإنما هو سيتعجب فقط من فعلك ، ويبقى
فى نفسه الإنكار للقضية التى سقت دليلك الحسى من أجلها .

ولذلك جعل الله الرسالة الأخيرة معتمدة على حجة عقلية دائمة ، هى
القرآن ، الذى هو الرسالة والمعجزة المثبتة لتلك الرسالة فى الوقت ذاته . .
وهذا أمر ذو قيمة كبرى تفرد به الإسلام .

وقد أراد مشركو مكة أن ينهجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم طريقة
مَنْ قبلهم من الأمم فى طلب الآيات الحسية ؛ فأبى عليهم القرآن ذلك ، وقال :
« أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » . . « كَذَلِكَ
قالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ، قَدْ بَيَّنَّا
الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُون . إنَّا أَرْسَلْناكَ بالحقِّ بَشيرًا وَنَذِيرا » . « وَلَوْ فَتَحْنَا

عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماء فَظَلُّوا فيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُوا إنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُن » ... « ولَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنا إلَيْهِمْ الملائكةَ ، وكَلَّمَهُمُ المَوْتَى ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِم كلَّ شئٍ قُبُلاً ما كانوا لِيُؤْمِنوا إلا أنْ يَشَاءَ اللهُ » إلى آخر الآيات التى تبين أن المعجزة الوحيدة التى تحدى بها رسول الله إنما كانت القرآن وحده . . .

و بعد هـذا أقول للذين يرون المعجزات الحسية عقبة فى سبيل الإيمان بالنبوّة : أليس الناس متنوعين فى التفـكير وطرق الاقتناع ؟ فلابد إذن أن تُنوع وسائل إقناعهم ، فمنهم العقليون الذين يسيرون على سنن الله ، و يدركون كلماته فى الطبيعة ؛ ولو لم يتحدث إليهم بصوت ولا نبرات ، وهؤلاء قليلون جداً ، ومنهم الأطفال المحدودون الذين لا يصدُرُون إلا إذا رأوا تمرة أو جمرة ، درهماً أو سوطا ، وهؤلاء هم الأكثرية العاملة الناصبة . . .

لماذا تنسون طرائقكم فى التدريس أيها الفلاسفة المعلمون ؟ ألا تنوّعون أساليب التفسير والشرح تبعاً لعقول تلاميذكم ؟ وهذا أيضا هو عمل الله مع الناس .

***

« و بعد » فحديث الوحى والنبوة كان يجب أن يكون مفروغاً منه عند المتأملين بعمق فى الطبيعة ، الذين يدركون عمق الحياة وتزاحم تياراتها على القلب الإنسانى ، مما لا بد معه من وجود حبل للنجاة فيها ، والطمأنينة على قيمتها وقيمة الإنسان .

إن وراء الحياة ربها الحكيم الذى يحتم العقل الإنسانى وجوده ، ولن يخلى الطبيعة منه إلا إذا جُنَّ واختلط . . . وقد وضع الإنسانَ فى قمة الحياة الأرضية ، وصار له اقتراحات وأعمال فى تنقيح الطبيعة والتصرف فيها ، تبين

أنه ليس شيئا تافها يعيش على هامش الحياة ، فكيف بعد هذا كله يترك هذا النوع المكرّم من غير خطاب من الله من أول الحياة إلى آخرها ؟ . . .

إن هذا الخطاب يحكم العقل والوجدان أنه لابد منه ، حتى ولو كان للترف والأُنس الروحى بين الله والمخلصين له . . دع عنك الضرورة الاجتماعية الحادّة التى تحتمه ، ليستطيع الإنسان الرسول أن يحمل العبء مطمئناً متشجعاً صبوراً حَمُولا . . . لأنه يسمع صوت الله قائلا له : احمل واصبر لأنى معك . . .

***

إن السكون ملىء زاخر بكل معنى من معانى الحياة ؛ فهو كمصدر الإذاعة اللاسلكية ، والقلوب لها خاصة الالتقاط كآلات الراديو التى تستقبل ، و بعض القلوب قوى يستطيع أن يأتى بمعان صادرة عن أفق بعيد ، كما أن بعض آلات الراديو له قوة على التقاط الموجات البعيدة . . .

وهذا مدخل آخر نستطيع أن ندخل منه إلى فهم معنى الوحى ، فَقَلْبُ النبىّ وعقله أُعِدَّا إعداداً خاصاً لسماع ما وراء الطبيعة أو رؤيته . . . وهما فى قوتهما يعتبران قمة الرقىّ الإنسانى الذى يستطيع الإنسان أن يصل إليه فى الاتصال بخفايا السكون .

وما دام العصريون يسلمون بمذهب النشوء والارتقاء فى الأجسام ، فلم لايسلمون به فى العقول والأرواح ؟ .

ولابد من باب ينفذ منه العقل الإنسانى إلى ما وراء الطبيعة ، وهذا الباب هو عقل النبى وروحه ؛ ولن يقنع الإنسان بانقطاع الصلة بينه و بين ما وراء الطبيعة إلى هذا الحد الذى نراه من الإغلاق فى الطبيعة ، وعدم سماحها بأى ثغرة ننفذ منها .

ولو كان منكرو النبوّة والوحى يتبعون الأسلوب العلمى فى بحثهم حول النبوّة والوحى ، كما يتبعونه فى بحثهم فى المادة ، ما أباحوا لأنفسهم أن يرفضوا شيئا لم يقم دليل علمى على بطلانه ، بل ما أباحوا لأنفسهم أن يجادلوا فيه عارفيه من الأنبياء والأصفياء إلا على سبيل الاستفسار لا الإنكار . فكما لا يباح لرجل الشارع الجاهل أن يجادل « ملكن » أو « مركونى » أو « أديسون » وغيرهم من أساطين العلم المادى ، لا يباح — لو أنصفنا — أن ننكر على الأنبياء ما رأوه فى آفاق الحياة والروح ، إلا إذا كنا على قرب منهم فى الصفاء والرياضة الروحية التى كانوا يزاولونها . فالأسلوب العلمى يحتم على من يريد الإنكار عليهم أن يقارب منهم و يزاول ما يزاولون .

قال الغزالى أبو المعرفة ومحصّل علوم زمانه فى كتابه (المنقذ من الضلال) « ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم (الصوفية) فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتاً ، و يقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقَّى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ، ولا يحاول معبّر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه . وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قُرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول . وكل ذلك خطأ . . . » إلى أن يقول : « و بالجملة فمن لم يُرْزَق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء على التحقيق بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل إلى جبل حِراء ، حين كان يخلو فيه بر به و يتعبَّد ، حتى قالت العرب : « إن محمداً عشق ربه » وهذه حالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها » .

ثم بين الإمام الغزالى أطوار نموّ العقل البشرى من إدراك المحسوسات إلى إدراك المعقولات ، و بيّنَ أن وراء هذه المنطقة «عيناً أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون فى المستقبل ، وأموراً أخرى العقل معزول عنها» .

فعلى منكرى هـذا من الباحثين الشاكّين أن يتبعوا الأسلوب العلمى فى الإنـكار والإثبات ، فيسلـكوا سبيل أبى حامد الغزالى وأشياعه ، ليروا أهم على حق أم على باطل ؛ فلقد كان أبو حامد شاكًّا فدرس وسلك حتى أتاه اليقين . . .

العَدلُ الإلهيّ

مقدمات لإدراكه واليقين به

— ١ —

لا شك أن العقل هو الخصوصية الأولى للإنسان ، فواجبه أن يثق به ويقيم حياته جميعها عليه ، وهو محاسب عليه أشد الحساب ، لأنه ميزان الحساب فى كل شىء .

وهو الذى وطد الحياة الاجتماعية التى يحياها الإنسان الآن ، وإليه يرجع كثير مما فى الحياة الإنسانية من آثار الرفاهة والسعادة والخدمة المشتركة ، فلماذا لا يصمم الإنسان على ألا يحيد عنه حتى يرتاح دائماً ؟

ولماذا لا يعرف أن عقله روح من العقل الأعلى الذى يدير الكون بالتدبير والدقة والاطراد وعدم الإخلال بشىء ؟

إن الغرائز يجب أن تكون ملجمة بحدوده حتى يتأتى تقدم الإنسان دائماً وعدم ارتداده وانتكاسه .

وعقلنا هو نتيجة تلاقى المؤثرات المختلفة التى فى الطبيعة على كياننا ، فيجب أن يكون تلاقى هذه المؤثرات موزوناً بنسب معينة من جميع الجهات ، حتى يخرج العقل منسوقاً موزوناً . . فإذا صار لشىء من الطبيعة زيادة تأثير على ناحية من كياننا ، كان فى هذا اختلال لمركز التجمع الفكرى العام .

ومهمة التربية والتنشئة أن توازن بين تسلط هذه المؤثرات الطبيعية جميعها

على الإنسان ، فلا تجعل مؤثراً أو عدداً من المؤثرات يطغى أو يستأثر بالتسلط عليه ، بينما المؤثرات الأخرى تكون معطَّلة .

فإنسان الصحراء وحدها قد خضع لمؤثراتها وحدها ، فله عقل معين ؛ وإنسان المزارع وحدها متأثر بها وحـدها ، فله عقل آخر . وإنسان المدن الصناعية له عقل ثالث ، وهلم جرا .

وإنسان الفن وحده له عقل معين ، وإنسان العلم وحده له عقل آخر ، وإنسان الأعمال التجارية له عقل ثالث . وهلم جرا .

فلـكى نتحاشى أن تكون الفروق بين العقول فروقاً فاحشة بحيث لا يمكن تلاقيها ، يجب أن نجعل الفرد تتقلب عليه شتى المؤثرات وتتداول فـكره ، حتى تكون آثارها فيه بِنِسَبٍ موزونة تعطيه سعة النظر إلى الحياة وتقدير آفاقها جميعاً .

وإنى لأعجب للدولة الواحدة التى تترك أفرادها ، وبينهم من التفاوت فى النشأة العلمية والاقتصادية والخلقية ما لا يمكن أن يُتصوَّر معه لقـاء منهم على شىء !

فـكيف يَتصور هؤلاء الأفراد الأوزاعُ المشتتون الذين لا رابطة تجمعهم معانى العدالة الإلٰهية أو العدالة الإنسانية ؟!

لا شك أنهم معذورون إذا لم يستطيعوا أن يتصوروا تلك المعانى الـكلية الجامعة التى تحتاج إلى إعدادٍ وتهذيب وتمرين خاص لإدراكها .

— ٢ —

وأول نظرة يدركها العقل المتعرِّف وجهات الحياة ، المعترف بجميع الأمم والشعوب ، المتحرر من التأثر بالمخلفات ومواريث التاريخ ، توحى أن الإنسانية أسرة واحدة ، وأن الأرض وطن واحد لهذه الأسرة .

والنظرة الثانية توحى أن الله وضع الإنسان فى الأرض موضعاً عظيما هو موضع السيد المتصرف ، على الأقل فى الظاهر .

وثالث نظرة توحى أن الله أعطى الإنسان قدرة واختياراً لتكييف حياته كما يشاء .

ورابع نظرة توحى أنه يكاد لا يكون فى الطبيعة فساد ولا آلام تجعل وجه الحياة كريهاً مشوهاً ، إلا بفعل الإنسان الذى تزيد نسبة الشرور التى يرسلها هو على الحياة وعلى بنى جنسه على نسبة الشرور التى تأتى من الطبيعة مباشرة ؛ كالبراكين والزلازل والطوفان والصواعق . . . الخ ، وخصوصاً فى هذا العصر . . . ومن المُشاهَد المعروف أن الإنسان لا يضيق صدره بقضاء الله وقدره المباشر ، ولا يثور غضبه وحقده ، ويتحول إلى عامل دمار وخَسار ، إلا فى مقاومة الاعتداء والشر الذى يأتيه من الناس ؛ لأنه يجد نفسه فى قدرة على دفاعهم والانتقام منهم ، فيقْدم على ذلك ليرضى حزازات نفسه . أما شرور الطبيعة ، فيتألم منها ، ولكن لا يثور عليها ، لأنه لا يملك أن يثور عليها ، فهو يجد أن أحسن وسيلة للقائها هو الصبر والاحتمال ومحاولة مقاومتها بإدراك أسباب الوقاية أو المعالجة .

فإذا أردت أن تعرف العدل الذى فرضه الله تعالى على نفسه ، فلا تنظر نظرة ضيقة متأثرة بالأنانية للشخصية أو القومية . . . لا تنظر إليه من مكانك أنت فى أمتك ، ولا من مكان أمتك فى الأمم . بل انظر إليه وأنت تمثل الإنسانية الواحدة . . .

ثم إذا أردت أن تنظر إلى الانسانية فى الأرض ، فانظر إليها من السماء نظرة الله . . . إنك حينئذ تراها هكذا : أسرة واحدة منوعة أفراداً وجماعات وأمماً . . كل جماعة استأثرت بمكان ومنعت غيرها عنه . وكان اقتسام الأمكنة

غير عادل ؛ فأخذت أمة السهول المُمْرعة ونالت أخرى الأجادب ، فزاغت عيون المحرومين وجاعوا إلى الضرويات فلم يلبَّ لهم رجاء ، ولم يخفَّ المترفون الأغنياء لنجدتهم ، فهاجموا وقاتلوا واستولوا وأذلوا وصار بعضهم يموج فى بعض . .

وحقيقة الحقائق الاقتصادية التى يجب أن تقوم عليها فلسفة الحياة المادية ، أن ما فى الأرض من خيراتها ومناجمها وموارد الأرزاق فيها كافٍ جميع سكانها ، ذلك أمر تولى الله تقديره وتدبيره « وبَارَكَ فِيهَا وَقَدرَ فِيها أقْوَاتهَا » .

كان الواجب العقلى المجرد من الغرائز أن يسرع المتخوم بإسعاف المحروم ، وأن يقتسم معه ما زاد حتى على كمالياته ، وأن تقوم حكومة عادلة تتولى ذلك . . فإن الأرض كلها ميراث للإنسانية كلها كما يرى الله وكما قدر ودبر . .

— ٣ —

ورأيى أن كل ظلم واقع على المستضعفين فمسئوليته أمام الله واقعة على كاهل الأمم القوية ، وكل أمة جاهلة مسئولية جهلها واقعة على الأمم العالمة . . وكل أمة فقيرة مسئولية فقرها واقعة على الأمم الغنية . فالله ترك القاصرين منا للراشدين ، كما يترك الأب أولاده الصغار لرعاية الكبار . . ذلك قياس العقل الإنسانى وذلك منطقه فى الأسرة الواحدة ؛ فلم لا يكون قياسنا فى الأمة الواحدة ثم فى الأمم المتعددة ؟ !

ولذلك كانت النفس العربية فى أول نهضتها برسالتها تحس ذلك الإحساس المتمثل فى قول رسول الله : « كلكم راع وكلكم مسئول » .

وقول أبى بكر : « لو أن عقال بعير ضاع بالعراق لحسبت أنى مسئول عنه أمام الله » .

وقول عمر حينما رأى شيخاً قبطياً مسيحياً يسأل الناس على باب مسجد « لقد أضعناك صغيراً ولم نــكْفِك كبيراً » وأجرى عليه رزقاً يكفيه . .

وقد قام العرب أول الأمر بمقتضيات هذا ؛ فـكانوا يعتقدون أنهم مسئولون عن إصلاح الناس جميعاً ، ورعاة لهم جميعاً . . فتنقلوا لا يبحثون عن الأمكنة الخصبة للاستعمار ، بل يبحثون عن عباد الله للإرشاد والإنقاذ والتعليم ، فـكان أحدهم يخرج من جنات الشام والعراق ومصر إلى صحارى الشرق والغرب يبحث عن النفوس الضالة ، والعقول الشاردة . . فلما ركنوا إلى التوطن فى الرياض ، وتركوا الهجرة لمثاهم الأعلى ، وفقدوا التبشير به ، قلّ دخول الناس فى دينهم ، إذ وجدوهم مثلهم : تجار دنيا . .

— ٤ —

إن العقـل إذا أُهمِل ، ضلت الإنسانية وتحولت أسـباب حسناتها إلى سيئات . . والمسئول عن ذلك ليس الله ، بل الإنسان فى مجموعه . ولم يَخْلُ عصر من العصور التاريخية من إمبراطورية عظيمة كانت تسيطر على أغلب مقدرات الأمم ، وتستطيع أن تقيم العدالة بينها لو أرادت ، ولـكن الأنانية والجهل وعدم الانتباه إلى مسئولية الخلافة فى الأرض ، هى التى ملأت الأرض بالظلم والفساد .

والدليل على ذلك أن الإنجليز مثلا أو الجرمان أو الروس البلاشـفة أو الأمريكان ، حين أقاموا دولهم فى بلادهم على الشعور بالوصاية العامة وتوزيع العدالة ، ارتفعت نفوس الأفراد ، وصحّت الأجسام ، وسمت عقائد الحيـاة ، وتقدم العلم ، وكفيت حاجات النفوس إلى حد ما . مع أن كل أمة من هؤلاء مكونة من عدد كبير . . بينما أمة صغيرة من الهمج وأشـباههم ،

لا يزيد عددها على بضعة آلاف ، ولا تزيد مساحة بلادها على بضعة أميال ، تعيش فى فوضى واضطراب وفساد وجهالة ؛ لعدم الإحساس بالمعنى الإنسانى فى كل فرد ، وعدم الإحساس بالوصاية العامة ، وعدم تدبير الأمر بينهم .

وإن حياة السوء التى تحياها الأمم المتأخرة هى التى تبلبل عقائد المفكرين منا والجهال ، وتجعلهم يحمّلون الله مسئولية ما يقترفون هم . . . إنهم يعترفون بالأقدار ويحمّلونها متاعبهم ومسئولياتهم حين يكونون متخلفين متقاعسين ، ولا ينظرون إليها ويعترفون بها حينما يكونون قادرين .

وإنك لو فكرت وقدّرت ، لوجدت جرائم القادرين والأغنياء هى التى سببت ملء الأرض بجرائم الفقراء ، كالسرقة والقتل وحمل أسباب الأمراض وآثار الفقر المدمّر .

— ٥ —

لقد وُجِدتْ فى هذا العصر نظم صالحة تسمح لدعوات الحق والصلاح أن تتخذ طريقها فى أسواق الحياة بدون عوائق غير طبيعية ، بعد أن قدست حرية الفكر والقول ، وسمح لكل فرد أن يقول ما عنده بدون سباب أو أذى .

وقد تيقظت الإنسانية لحياتها وقيمتها ، وعرفت قيمة الفرد فيها ، فأفسحت الأمم الراقية له المجال ليخدمها بالقول والفعل ، مهما كان ما يدعو إليه جديداً غريبا . ومتى أخذ الناس أنفسهم أن يسمعوا لكل قائل ثم يحاكموه إلى العقل ، فهم فى تقدم . فعلى كل مظلوم أن يصرخ ، وعلى كل داع أن يتكلم ، وعلى الجماعة أن تسمع لهذا وهذا وتنصفه .

والظلم السياسى أو الاقتصادى من القوى أو الغنى للضعيف المحروم ، هو الذى يجعل الإنسان يكفر أو يشك فى العدل الإلهى . . وطبيعى أن الله

لا يتدخل فى كل شيء بين الناس تدخلا ظاهراً . . وهو قد أقام قوانين الطبيعة حدوداً يتحاكم الناس إليها . . فالنار تحرق من يضع يده فيها سواء أكان صديقاً أم عدواً . . والتردى من شاهق يهلك ، والتعرض للمرض يُمْرض ، والماء يُغرق . وهكذا كل عمل له نتائجه الحتمية ؛ لأنها قوانين طبيعية لا تبديل لها ولا تحويل . . والله يترك لقوانين الطبيعة العقاب الطبيعى على كل مخالفة يرتكبها الفرد أو الأمة نحو تلك القوانين . ذلك ظاهر واضح فى مجال الطبيعة .

وأما فى مجال الإنسان فالاختيار أفسد عنده كثيراً مما كان يجب أن يسير عليه سيراً طبيعياً ، إذ قد ملأ حياته بالتهاون .

فالظالم يظلم ، وعلى المظلوم أن يثأر لنفسه ، ولو كلفه ذلك حياته . ذلك حكم الطبيعة ورَدُّها الإيجابى ، كما رَدَّت بالإحراق على من دسّ يده فى النار . . . ولكن المظلوم كثيراً مايغفل ويُهمِل الإصرار على أخذ حقه ، وكثيراً ماتبطىء الجماعة أو تهمل فى رد حقه إليه .

وما دمنا نعيش فى جماعة فلا بد أن تتولى هى الأخذ بثأر المظلوم من ظالمه ، حتى لاينفرط العقد الاجتماعى ، فإذا فرط المظلوم فى حقه ، وإذا فرطت الجماعة فى الانتصاف له ، كان هنا حينئذ قانون طبيعى اجتماعى اعتدى عليه وخولف ، ولم يكن له من الإنسان تصحيح وردٌّ لقيمته ، وكان وراء ذلك حتما ثلمة فى الجماعة يتطرق منها الفساد ، فليس الذنب هنا ذنب العدل الإلهى ، ولكن ذنب الجماعة التى برهنت حين أهملت الاقتصاص من ظالمها أو ظالم أحد أفرادها ، مع أنها أقوى من ذلك الظالم ، على أنها لاتستحق الحياة الرشيدة لأنها لاتعرف قوانين المقاومة ، وعلى أنها غُثاء وقَشٌّ يستحق أن تضغطه قوة أخرى أصلح منه للسيطرة على الحياة .

إن الله يقاوم النفس بالنفس كما يقاوم أية قوة طبيعية بقوة مضادة لها ، ليضمن التناسق والصلاح ، ودوام كل شيء كما وضعه وجعله يسير فى دوراته الأبدية « ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفَسَدت الأرضُ » .

وإن حجته الناهضة على عدله ، أنه لم يجعل لأحد سيطرة على فكر أحد وشعوره القلبى . فلن تستطيع أية قوة أرضية أن تتحكم فى فكرك وشعورك . فإذا أحسست بظلم ، فأمام نفسك قوة حرة تستعين بها : هى حرية الحركة الفكرية والغضبية لرد الظلم عنك ، فلا تُغفِل حقك فى الحياة ولا ترض بها غير كاملة الحقوق ، ولا ترض بحياة الضعف مهما كلفك السعى للقوة ، واستمع لهذا الصوت المتفجر من ضمير السكون يصيح بك :

« إن الذين توَفّاهم الملائكةُ ظالمى أنفسهم . قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض . قالوا ألم تكن أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها ؟ ! فأولئك مأواهم جهنمُ وساءت مصيراً » .

— ٦ —

وأول واجبات الجماعة أن تبحث عن أصلح رجالها لتوليه حكمها ، أى أن توسِّد الأمرَ إلى أهله ، وأن تقيم حدود حياتها ولا تتهاون أو تستثنى فيها ، ثم تترك لحاكمها أن يحكمها بالعدالة والقوة القاهرة الرادعة .

ذلك هو طريق الله فى حكم العالم : قوة وإحاطة ، وقهر ويقظة ، وعدالة ومجازاة .

وإن الجماعة هى المسئولة عن كل ظلم أو فساد يتطرق إليها . والله لا يتدخل بتغيير شيء فى حياتها إلا إذا أرادت وغيرت ما بنفوسها ، إنه جعلها فى الأرض صاحبة سلطان يكاد يكون مطلقاً فى شئون حياتها الاجتماعية .

وعلى هذا هو غير مسئول عن توزيع الثروات توزيعاً ظالماً ، ولا عن شيوع الجهالة والآثام .

من قال إن لكل إنسان الحق فى أن يملك جزءاً كبيراً من ثروة وطنه التى جمعها له كثيرون من العمال والفقراء ، ثم لا يؤدى حق الفقير والمحروم ، ويترك أبناءهم يبحثون عن اللقمة والخرقة فى المزابل كما نرى ! بينما هو يكاد رأسه يتحطم فى حساب أمواله المكدسة ! ؟

من الذى أباح للفرد أن يملك أكثر من حاجات نفسه وكالياتها فى متوسط عمر الإنسان ؟ فإذا كفل أن يملأ مطبخه كل يوم بألوان كثيرة ، وداره بالفُرُش والرياش الفاخرة ، واصطبله بالخيول المطهَّمة والسيارات الفخمة ، وفناء داره بالأزهار ، وهكذا . . فما باله يَشِحُّ على أمته فيما وراء ذلك ؟ !

فإذا تمتع كما يحلو له وأفرط فى ذلك حتى مرض ، فما باله ينسب ذلك المرض إلى الله ويسخط عليه ؟ !

من قال للإنسان الغنى ، أو الفقير : احشد على مائدتك كل مادة مغلظة ، أو كل لحم المريض من البهائم ، أو كل ما لا تطيقه أحشاؤك ، أو كل طعام الصيف فى الشتاء وطعام الشتاء فى الصيف ، أو أفرط فى السهر وعربد وأطلق لأهوائك وشهواتك العنان ، وسوف لا يكون من وراء ذلك شقاء ولا هم يحزنون ؟ ! .

ومن قال له : كن قوَّاداً لفلان ، أو ماسح حذاء فلان ، أو نمَّاماً له ؛ لترقَى أو تنال درجة أو وظيفة ؟ .

ومن قال له : بع حريتك ، واجعل خدك مَدَاساً ، وقل للكلاب : ياسادتى . . . فى سبيل الخبز القذر المعجون بدموع الذلة ! .

ومن قال له : اترك ابنك قذر الجسم والثوب ، عليه التراب والذباب ، لأن العمر بيد الله ؟ ! .

ومن قال له : لا تحافظ على الطفولة « منطقة نموّ الإنسانية » وأخرجها ضعيفة جاهلة ؟ !

ومن قال : إن الحياة آلام ومشقات ؟ .

من قال ؟ ومن قال ؟ آلله قال هذا ؟ أم الجماعة الفاسدة هي التي قالت ذلك ونسبته إلى الله ، وجعلت الفرد يتهجم على العدل الإلهى الذى أقام الناموس الطبيعى بموازين لا تخطىء ولا تحابى ؟ !

اسمع ما يقول القرآن : « ولو أنَّ أهلَ القرى آمنُوا واتَّقَوْا لفتَحْنا عليهم بركاتٍ مِنَ السماء والأرض ؛ ولٰكنْ كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسِبون » . « وما كانَ ربكَ مُهلِكَ القرى بظلمٍ وأهلُهَا مُصلِحون » . « ياعِبادِيَ الّذينَ آمنُوا إنَّ أرْضِي واسعةٌ فإِيّ فاتّقون » والتقوى كلمة جامعة ينبغى أن يكون لها مدلولها الأول : وهو العمل الوقائى لجلب الخير ولدفع الشر « الَّذِينَ تتوفَّاهُم الملائكة ظالمِى أنفُسِهم » إلى آخر الآية التى مر ذكرها قريباً « ظهرَ الفسادُ فى البرِّ والبحرِ بما كَسبت أيدى الناس ليُذِيقهم بعض الذى عمِلوا لعلهم يرجعون » .

— ٧ —

قم إلى جسمك وقوّه بالرياضة ، وحافظ عليه من عوامل الفساد ، ولا تأكل إلا ما يسمح لك به الطب ، ولا تسرف فى الأكل والشرب ، ونقِّ جسمك من الأخلاط والفضلات الضارة . . ثم انظر هل يبقى به من سقم أو كلال إلا ما تستتبعه الحياة العاديّة فى الأرض ؟

وقم إلى منزلك ومتعه ببهات الله من الشمس والضياء والهواء والبعد عن العفونات والرطوبات ، ثم انظر : هل تجد فيه غير بهجة الحياة سواء كان قصراً أم كوخاً ؟

وقم إلى فكرك وعلمه وهذبه وسلحه بأدوات العصر ، وقلّبه فى أعاجيب الكون ، ثم انظر : هل تجد بعد ذلك سخطا ما فى نفسك وتشاؤما وضيقا ؟ !

وقم إلى حواسك ومتعها بالجمال المباح ، ولا تحرمها من زينة الله التى أخرج لعباده ، وأذهب عنها الملل والسأم وعَنَت الجدّ والعمل ببعض اللهو واللعب المشروع ، وغنِّ فى غير فحش إن كنت حسن الصوت ، واسمع الغناء الشريف والألحان القوية فى غير إسراف ، وارقص — إن كان لا بد — رقص الفتوةِ وطفور القوة الذى لا تخنث فيه ولا شهوة ولا مخاصرة ، لتنفُض عن كتفيك أعباء الهموم فى بعض ساعات حياتك ، واضحك من قلبك كطفل ، وافرح بالشمس والقمر وأسلِم جسمك للنسمات .

ولكن احذر أن تحول الإحساس بالراحة من عنت الأعمال الجِدّية إلى شهوة تتملكك وتسلبك التحكم فى إرادتك وتمنعك من أداء واجباتك ؛ فإن هذه الملاهى والراحات والمباهج ، ما حرمت عند بعض المتزمتين إلا لأنها تطغى على النفس وتمنعها عن الواجبات . وكما أن الماء يحرم فى رأى الدين والطب إذا أورث شاربه أذى ، كذلك تحرم هذه إن كان وراءها أذى للخُلق أو الجسم .

وقم إلى طفلك ، فاحذر أن تلقى بذرة إنسانية مسمومة بالخمر أو الأمراض الخبيثة ، حتى ينبت فى الرحم وهو صحيح ، ثم حافظ عليه وهو جنين ، فلا تجعل مؤثراً عنيفاً يؤثر فيه ، حتى يخرج بريئاً من عوامل الالتواء والاعوجاج ، فتعهدْه وتيقظ لتنمية حواسه وجسمه ، وافتح روحه ، وثقفه وهذبه .

وقم إلى روحك فاعتقد لها العقيدة الصالحة الصحيحة ، وتعبد بمقتضاها ، حتى توقظ فيك حياة الاتصال ببارىء الكون ، وتجعلك تحيل عليه جميع أمورك وهمومك وآمالك ، وتُقدمَ إلى وجهه جهادك وصبرك .

ثم قم إلى الجماعة التى تعيش فيها ، وأقمها على المنطق والمصلحة العامة ، واحمل الناس على الإنصاف ، ثم استعن بالله وتوجه إليه فى كل ما تقدم عليه ، لأنه مالك الأمر كله . فإنك حينئذ ترى الفردوس المؤقت المنشود .

— ٨ —

كل هذا لا يملكه الفرد قطعا لنفسه وذريته وحياته ، ولكن تملكه الأمة لأفرادها إن أرادت ! و إرادتها حينئذ تكون من إرادة القدر الإلهى .

بل إرادة الأمة هى بدء إرادة القدر الذى فى حدود قوانين الحياة ، أما القدر الذى يأتى من وراء الحدود فذلك أمره إلى الله وحده ، وهو قليل .

إن مولانا محمداً رسول الله هزم هو وجيشه فى يوم (أُحد) و يوم (حُنين) ، لأن فئة من جيشه لم تأخذ بما أمرها هو ولا بما يأمرها به العقل ، فتركت فى (أُحد) أماكنها فى الصفوف لشهوة صغيرة ، وأعجبتها كثرتها فى (حنين) فلم يُحابِ قدرُ الله الجميع ، ولو كانوا أصحاب محمد ؛ لأن القدر لا يحابى من يخالف قوانين الحياة . وفى ذلك إرشاد بالغ للمسلم حتى يعتمد على فكره و إرادته بعد أن يطلب التوفيق من الله .

إننى أتصور فى بعض الأحيان أننى ألقيت بنفسى فى النيل ، أو لم أنحرف عن طريق ترام أو سيارة شبراً واحداً ، فإذا بحياتى تضيع ؛ لأنى أنكرت

قوة من قوى الطبيعة لم أحسب حسابها ، أو استخففت بها ، وهى ذات بأسِ الحديدِ ، أو صعقِ النارِ أو غَمْرِ الماء .

و إن الذى يقرأ القرآن مليون مرة فى مواجهة عدو مسلح لا يجديه ذلك شيئاً كما يجديه أن ينفذ آية واحدة منه وهى : « وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة » ! كما أن اللص لا يجديه شيئاً أن يحفظ أو يتلو قانون العقوبات ، إذ لم يوضع هذا القانون للتلاوة والاستظهار ، بل للتنفيذ .

فالأوامر القرآنية منزلة لتنفيذها و إقامة الحياة بها لا « لحفظها فى الذاكرة » و إهمال تطبيقها . وتلك حقيقة أخطأ كثير من المسلمين فهمها مع الأسف . .

* * *

طبعاً ليس فى هـذا الحديث وعد بالجنة فى الأرض بناء على تنفيذ هذه الوصايا . . ولـكن فيه زحزحة عن النار . . عن جحيم السخط والألم والنكران والجحود والشك فى قيمة الحياة وفى العدل الإلهى . . وعن النظر إلى حياة التدين على أنها حياة كآبة وضعف وحزن وضنًى وألم وسخط وندم . .

* * *

« فلنحاسب » الله « ولنحاكم » عدله الالهي بعقل سـام وفـكر كبير كفكره تعالى فى الطبيعة كلها . وهذا لا يكون إلا إذا نظرنا إليه تعالى نظرة تتمثل فيه الإنسانية كلها ، لا نظرة أمة أو جماعة يزعمون أنهم شعبه المختار ، فهم لذلك يعتقدون أنهم أحق بكل ثروات الأرض وقوّتهـا وجنة السماء ! أو نظرة جماعة ذليلة مستعبدَة ، يملـكون أن يموتوا أحراراً ، ولـكنهم لم يفعلوا ورَضُوا بمذلات الحياة . .

فمن سوء الإصرار وقلة الإنصاف أن نظل نحاسب عدل الله بعقول أطفال قصار النظر ، يريدون أن يستأثروا بحبه تعالى لهم وحدهم ، ويحاربوا من عداهم من عياله فى مقومات حياتهم .

ومن المضحك أن كل شعب يزعم أنه الشعب المختار ، وأفراده أبناء الله وأحباؤه ! . ومن المؤسف أن كل فرد فى كل شعب غير مهذب ، يريد ثروة الحياة كلها لنفسه وحدها !

إننا نستطيع أن نطبّق العدل الإلهى فى الأرض ، وأن نحصل على السعادة إذا تحرّرنا من تاريخ طفولة البشرية الذى لايزال يصاحبنا ، ويتمثل فى غرائزنا الأنانية تمثلا فظيعاً يحيل حياة كل أمة إلى شقاء ، ويجعلنا كلنا نخسر التمتع اللائق بهذه الرحلة السعيدة التى دعانا الله إليها على هذه الأرض ، ويؤخر تقدمنا العلمى والروحىّ الذى يفتح علينا بركات من السماء والأرض ، تطعمنا من جوع وتؤآمننا من خوف ، وتزودنا من طمأنينة اليقين بعدل الله والرضا عن الحياة .

بينَ الإثبات والإنكار

أحسب أن ما عند المثقف المتأمل العادى من العلم والرأى كفيل أن يردّه إلى الاطمئنان متى حرص على أن يرى دائماً بَدَهيَّات الحياة ولا ينساها ، وعلى ألا يتركه النظرات الفلسفية الشاردة تقوده إلى الخروج عن حدود الواقع العملى الذى لا نرى غيره فى الحياة متسلطاً على عقول أكثر الناس .

وإن النظرات الأولية للحياة ، هى التى تفرض علينا الإيمان ، فإذا جاوزناها ، لا بد أن يكون لنا من القدرة على الرجوع إليها ما يضمن لنا الاعتصام بصخرة النجاة والطمأنينة على الحياة وقيمتنا فيها .

وينبغى لرجل الفكر أن يتذكر دائماً أن إنكار وجود الله ، أو القيمة السامية لحياة الإنسان هنا ، أو المصير السامى لحياته الأخرى هناك ، معناه تخبيل العقل وتشريده . . ولئن كان فى الإثبات بعض الإشكال عند من لم يتصل بأصول الحياة ، فنى الإنكار كل الإشكال .

وأمام كل متأمل فرصة من التسامح المطلق ليوازن بين فكرتى الإثبات والإنكار ؛ وهو مجرد من أى تأثير نحو إحداهما ، ليرى النتائج العملية لكل منهما .

وعلى هذا ، هب أن كل ما فى نفسك من الإيمان تحول إلى كفر ونكران ، وكل ما فى خلقك من البراءة والطهر تحول إلى نَجَس وعُهْر ؛ أفتتخيل أنك واجدٌ الطمأنينة والسعادة ووضوح الحياة بعد هذا التحول ؟ لا شك أن العاقل الناقد الذائق يجيب : كلا . . . ذلك لأن الكفر المبنى على

فكر ، ليس معه طمأنينة ولا استقرار على شيء ، بل هو فى ذاته كل القلق الذى يجعل الإنسان فى الحياة كطائر فى قفص يرى قضبانه محكمة متينة ، ومع ذلك يطفرُ ويحاول تحطيمها والانطلاق منها ، وليس له على ذلك طاقة ، « ولن نُعجزَهُ هرَباً » .

فالإيمان ضرورة فكرية للراحة فى الحياة قبل أن يكون تقليداً موروثاً عن الأم والأب والبيئة .

ثم إن حياة الإثم والانطلاق وراء الشهوات والآثام ليست مبعث سعادة عند ذوى الأفكار ولا عند الأغرار والسفهاء أنفسهم . واسألهم ينبئوك أنها ظمأ لا يرتوى . دع عنك عَقَابيلَها من الأوجاع والضياع ، ولا يمكن للجماعة أن تقرها ، لا لأن الدين ينهى عنها، بل لأن حياة الاجتماع تأباها وتعلن الحرب عليها بعد أن اختبرت نتائجها السيئة .

فالدين لم ينزل بالفضيلة من السماء ، وإنما الاجتماع الإنسانى هو الذى قررها ، ثم جاء الوحى فأقرها ؛ لأن الحسن والقبيح عقليان يُدرَكان بالعقل قبل الوحى ، ولذلك عبر القرآن عن الحسَن والقبيح « بالمعروف » و « المنكر » أى ما يتعارفه الناس وما ينكرونه بطبائعهم العامة وأذواقهم المشتركة .

ثم الواقع أن الخير الشخصى جزاؤه فيه ، والشر الشخصى جزاؤه فيه فى هذه الدنيا قبل الآخرة ، وكذلك الخير الاجتماعى والشر الاجتماعى جزاؤهما معهما فى هذه الحياة إذا ما كان المجتمع حارساً متيقظاً لحقوقه وواجباته وخدّامه وأعدائه .

* * *

وقد ألحدت عقلية القرن التاسع عشر المزهوة بالكشوف العلمية ، والناقمة على قضايا بعض الأديان وقيودها وخرافاتها التى تراكمت عليها بتوالى العصور

وسارت فى تفسير كل شيء خارج عن حدود المادة والمخابير والمعامل ، بتأويل مادى آلى ، فطغت الفلسفة المادية على الفلسفات التجريدية ، وأفرغت الطبيعة من « الارادة والعقل » ووكلتها إلى المصادفة والاحتمالات ، وأعطت الزمن حكم التصفية والتوجيه ، وأعطت القوى العمياء قوة الاختيار ، حتى قالت « إن الوظيفة تخلق العضو ! » وهزئت بحقيقة « السببية » والارتباط بينها و بين « المسببية » ووكلت الوجود إلى المصادفة والاحتمالات .

وقد كان يجوز أن نقبل هذه الفلسفات التى تسند إلى القوى العمياء بعض « الفاعلية » لو أنها جعلت وراء هذه القوى إرادة واحدة منظِّمة مختارة موجّهة. ولـكننا لا نقبل بحال أن تكون هذه القوى فاعلة بذاتها ، مستقلة عن ذلك النظام العام الموضوع بتدبير محكم ، و إلا رجعنا بعقولنا إلى درجة أشبه بطور الوثنيات القديمة التى كانت تعبد بعض القوى ، قصورا من عقولها عن إدراك قوة كلية عامة تدبرها جميعها .

و إن أول سؤال يَرِد على عقل متوسط هو : ما هو العامل الموفِّق بين فاعليات هذه القوى المتضادة العمياء هذا التوفيق الدائم المطرد البديع ، لو أن الأمر كان كما يزعمون من تسلط تلك القوى العمياء على الـكون ؟

والغلط الفاحش المغرور الذى لا يقبله العقل العام المتزن ، أن تتخذ حياة الأرض ، وهى ما هى من الصغر والضآلة ، مقياسا حاسماً نهائياً للحكم على العالم كله حكما جازما .

وقد وصل هذيان بعض الفلسفات إلى حد فظيع من الرجم بالغيب ، باتخاذ الفروض التى تساق فى الأصل لملء بعض الفجوات التى بين حقائق العلوم كأساس مسلم للحكم عليه ، مثلما اتخذوا الأثير إلهـاً ، وليس هو أكثر من فرض

فرضه بعض العلماء ليحل به بعض مشكلات التكوين فى الطبيعة ، ولا يزال هذا الفرض بين رفض وإثبات إلى اليوم .

ويتعجب العقل البسيط السائر مع أبجديات الطبيعة من أن يصل تفكير بعض الناس — بله كبار الفلاسفة — إلى مثل ما وصل إليه من هدم الحقائق بالفروض .

***

ليس المقصود من الحياة الفكرية ألا يرضى العقل بالأوليات الظاهرة المسلمة ، وأن يمعن فى الغوص والتعقيد ، فيخرج بفروض غريبة شخصية ليحل بها ما لا يفهمه من قضايا الكون كما هو الطابع الغالب على الفلسفات ، وإنما المقصود من الحياة الفكرية أن يكون التأمل فيها ممهدا للإثبات والعلم اليقينى ؛ فلا يفلت الخيال فى حالة الصحو كما يفلت فى حالة النوم أو التخدير . . . وما من شك فى أن عصور الفلسفة كلها لم تفد الإنسانية بمقدار ما أفادتها الطريقة التجريبية ، فإنها الطريقة التى قفزت بالإنسانية إلى أسباب رقيها السريع فى القرنين الأخيرين ، لأنها تركت عالم الأحلام والبدوات والفروض الشخصية التى قد لا تفهم إلا فى رءوس القائلين بها ، وقد لا تكون ناضجة الفهم فى رءوسهم أيضاً . . . واتخذت البديهيات البسيطة والمركبة أساسا بنت عليه صرح العلم الحديث .

ولقد كان جزاء هؤلاء الذين يسرفون فى اتباع الظنون والفروض ، ويتركون البسائط المعقولة بالبديهة إلى الأوهام ، أن يعيشوا منكّدين أشقياء متشائمين مرضى مضروبين بالشك والألم والبلبلة والشذوذ ، منفيين من الحياة !

إن (شو بنهاور) قد كذِب كذبة بلقاء ، وخرِف خرَفاً عبقريا ! حين زعم أن العالم معدوم لا وجود له إلا فى تصور الإنسان ، وحين أسند العمى والهوَج إلى (روح الوجود) وحين زعم أنها لم تدرك نفسها إلا فى عقل الإنسان وشعوره .

إن أقل ما يجب عقلياً « لروح الوجود » وخالق هذا الكون العجيب أن يتصف بصفات الإنسان العادى المتوسط المحترم بين الناس — بله السوپرمان — فكيف يسلبون المشيئة الغالبة على الكون الصفات الضرورية لبعض ما أوجدته !؟ كيف يعطى الخالق ما لا يملك هو من صفات التدبير ؟ !

مهما فلسف الإنسان فلن يستطيع أن يهدم الإيمان العام بحقيقة « السببية » العاقلة البديهية المستقرة فى كل نفس إنسانية أو حيوانية استقرار وجود تلك النفس .

ومنذ عهد « طاليس » إلى الآن ما استطاع فيلسوف أن يغزو فطرة الإنسانية فى إيمانها بهذه الحقيقة وينتزعها من إلهامها . ولئن كان الشذوذ والانحراف يحمل بعض المتأملين على الاعتقاد بأنه هدمها فى نفسه هو ، فلن يؤثر ذلك فى العقل العام .

إن الطفل حين يلتقم ثدى أمه لأول مرة بعد ولادته ليحس الشبع ، لأعظمُ مفحم لأكبر فيلسوف يهدم تلك الحقيقة كما قدمنا . بل إن إدراك البذرة للإنبات فى الظلام والثرى المبلل لأدعى إلى اعتبار تلك الحقيقة من الإلهامات الفطرية فى كل الكائنات الحية .

والذى يزعم نفسه عاقلا قادراً على أن يحكم على « روح الوجود » بما يريد ، ثم فى الوقت نفسه يسلبه — عزَّ وتعالى عما يصفون ! — قوة الحكم

والتدبير والإدراك ؛ فجزاؤه ماجزاؤه ؟ إن اللغة تضيق عن نعت له يرضى غيظ السموات والأرض من دعواه ! جزاؤه أنه قال ما قال ، وذلك حسبه لعنة . !

ومما يجب أن يُلْتَفَت إليه أن أجرأ الناس على الشك فى الخالق أو الإلحاد فى ذاته وصفاته كان مبعث جرأتهم السكر والتخدير . . . والسكر نوعان : سكر باللذة وسكر بالألم . وجرأة السكارى باللذة جرأة سطحية . جرأة طيش وسخرية واندفاع ، كجرأة الخيام والنواسىّ ، ولكن جرأة السكارى بالألم جرأة غيظ وحِقد وعناد وتمرد وقنوط وتحد ، وهؤلاء هم أثقل شراً وأكبر لعنة

فالمعرّى فى بعض أحواله ، وشو بنهاور ونيتشه وأمثالهم من المتشائمين المعطلين غضبوا على الحياة ونظامها وأدمنوا الآلام ، وصاروا يناقشون الخالق فيما خلق مناقشة الند للند . . فلا الخير خير ، ولا الشر شر ، كما رسمهما هو فى الطبيعة والشريعة ، وإنما الخير والشر ما يرسمون هم . . .

وقد أطفأ الأولان شعلة الحياة فى جسديهما ، ودَعَوا إلى إطفائها فى أجساد الناس جميعاً ، حتى تخرب الأرض وتفنى إنسانيتها .

وماذا كانت تكون النتيجة لو أن الناس كلهم كانوا رهبان تمرد وعصيان كالمعرّى وشو بنهاور ؟ وكأنى بالإنسانية وقفت موقفهما قائلة للخالق : هاكَ الحياةَ التى أحييتنا مردودةً عليك منطفئة الشعلة ! دونَكَ الأرضَ بحيوانها وشجرها ومرافقها لانريد ! لانريد ! وهانحن أولاء رهبان شر أيها الإله إلى أن نموت ! فأى كفر أوقح من هذا ! ؟

ولكن الإنسانية التى فى فطرتها و إلهامها الإيمان والطاعة والعبادة ، لاتنفك تطرد من حياتها هذه الدعايات الشاذة السامة كما يطرد أفرادها الغوائل والآفات ، ولا تزال سامعة مصغية واعية لذلك الصوت الذى يدوّى بهذه الكلمة :

« يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ! » . ولا تزال سائرة مأخوذة إلى غايتها فى سلاسل من الضرورات والرغائب ، بل لا تزال جِنَّانُ الحياة وأناسيُّها تنشد قائلة وهى سائرة على الطريق :

« وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا .

« وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ ، فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا » . « رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا » .

ذخائر الإيمان فى العقول والقلوب

أعجب لمتأمل لا يؤمن وهو دائماً يقلب حواسه فى الطبيعة !

أهو يَعجب إن رأى صنعة إنسانية تحاكى نماذج الطبيعة ، ولا يعجب من النماذج الحية الطبيعية التى تقذفها الأرحام وتتفتح عنها الأكمام ، وتنسجها ظلمات الأرض ، وتصبغها أضواء السماء ؟ !

ألا يعجب من يقظة القوانين الدائمة الصيانة للذرّة والمجرّة وما بينهما ؟

أنا أدعو كل ملحد إلى شىء واحد : أن يعيد النظر فى أبجدية الحقائق ، وأن يستحضر وهو رجل كامل روح طفل يفتح عينه لأول مرة على الحياة فيرى فيها كل شىء جديداً : الحياة الماثلة فى الطبيعة المجردة لا فى الطبيعة « المحفوظة فى علب » من الكتب والمصانع . .

أدعوه أن يترك الألفاظ الاصطلاحية التى ساقها الجدليون وأهل الخلاف ، فدخلت إلى فكره واحتلته وخنقت الأصوات الطبيعية التى تنبعث فيه منادية إلى الأوليات والمبادىء الفطرية دائماً ... بل إنى أدعو كل ذى لب وقلب : أن ابتدىء حياتك . . . كن طفلا من جديد . . . انظر إلى الدنيا بعين ريفى فوجىء بزينة المدينة لأول مرة . . . اِنسَ ألفاظ الناس وتعاليمهم . . . إن كثيراً من معلوماتك دخلت إليك وأنت قاصر لا تميز الخبيث من الطيب ... إنهم خدعوك فى الحق وخدعوك فى الباطل ؛ فليس كل الحق عندك حقًّا ، وليس كل الباطل كذلك ... وقد بنيت أحكامك ، بعد أن كَبِرْتَ واستقللت ، على أشياء لم تتأكد من صحتها ، ولم تَخبُرْها بكل عقلك وإلهامك . فأعد النظر فى كل شىء تظفر بلذة عظمى : لذة انكشاف حقيقة نفسك ودنياها لك

لقد أتى (ديكارت) فى الفلسفة الإثباتية الحديثة بشىء فكرى ثمين حين أعاد النظر فى نفسه ودنياها من جديد . . . إنه جدد حياة الفكر حين جدد حياة نفسه : فهدم كل ما فيها ثم أعاد ما يستحق البناء ، وذرَّى أنقاض الباطل فى الريح .

سترى الناس لا يسيرون على الطريق الواضحة ولكن يتفرقون على دروبها المسدودة أو الموصلة إلى التيه . . . أو يستدبرون وجه الطريق ويستقبلون قفَاه . . . أو أنهم يتخذون قطاع الطريق أدِلاّء ومرشدين ورُوّاداً . . .

إن الطب الجسدى يدعو إلى صحة الأجسام بتصفية الفضلات والزوائد والأخلاط المضادّة . . وكذلك يدعو الطب الفكرى إلى صحة العقول بتصفيتها ونفض ما فيها من أوهام وظنون كاذبة . . .

فلماذا لا تصفى كل ما فى نفسك لتذهب فضلاتها وزوائدها وسمومها . . ؟

إن هذا يذكرك نفسك دائما ولا يدعك تذهل عنها بالاشتغال بقشور حياتها ، وبالنزاع الكاذب عليها ، ولا يشغلك عن مواكب الحياة التى تمر أمامك فى كل لحظة .

إنه مسح لزجاجتها حتى تكون شفيفة صادقة الوصف والنقل لما وراءها !

والذهول عن النفس بالخبز والذهب والحديد ، فَقْدٌ لها وإهدار لحياتها الحقيقية ، وسوء فهم لطرق إمتاعها ، وإن طعم الحياة لايذاق إلا بالتيقظ لها فى كل لمحة ونَفَس ، والإنسانية هى هذه اليقظة .

ومتى ابتدأتَ حياتك شعرت بنفسك ، ثم شعرت بيد قاهرة خفية تدفعك من غير إرادة منك ولا استشارة لك إلى هذه الدار العجيبة الكبيرة الهائلة :

الدنيا ، وتلك اليد هى مناط الإيمان ، يجنُّ العقل ولا يستطيع تصور الطبيعة خالية منها أو خارجة عن طوعها . . .

فالإيمان هو أن تدرك هذه اليد وتطيعها وتحبها لأنها تريد لك الخير والجمال والسلامة والنجاة من جبروت القوى المادية العمياء الجبارة التى تزخر بها السماوات والأرض ، وأن تقذف بنفسك دائماً فى حمى هذه اليد القاهرة الحامية لحقائقها وقوانينها ، وأن تكون معها كما يكون الطفل مع أبيه : يَلُوذُ به ويعوذ ، ويعتزّ ويفرح ، ويفتخر وينتسب !

فالإنسان بالإيمان ساندٌ ظهره إلى جدار من السموات والأرض ، مُحْتمٍ بقوانينهما ، سائر دائماً فى صف جندهما ، شاعر أنه قوة خادمة للإلٰهية ، عاملة للتعمير وإقرار الحياة فيهما ، فاهم أنه قيّوم صغير نائب عن القيوم الأكبر ، تتجدد فيه الحياة ويتدفق فيضها المستمر الذى يحيا به مع كل الحيوَات .

ثم هو فى مخاطبة فكرية دائمة مع المشيئة الغالبة العالمة المبدعة التى تلتقى عندها الخلائق . . .

وإن إدراك معنى من معانى الإلٰهية فى خفقة من خفقات الروح ، أمر يحطم الحدود الضيقة التى يعيش فيها الإنسان ، ويجعله يتسع للعالم كله ، فيرى الخلائق جميعها تلتقى وتزدحم وتنصبّ فى قلبه . . .

فمَن مِن المتأملين لا يريد أن يرى الدنيا جميعها فى لحظة خارجة عن حدود الزمان ؟

من منكم يا راصدى الدنيا يأبى لنفسه هذا الاتساع وهذا الإدراك لكل شىء فى موضعه الحقيقى بين يدى الإله ، سواء أكان صغيراً كالذرة ، أم كبيراً كالمجرّة ؟ ! .

قولوا يامُوصِدِى أبواب هذا العلم الرحْب فى وجوههم وفى وجوه الناس ! .

أجيبوا يامدمِّرِى سعادة الإنسان ، ومُهْدِرِى معناه ، ومضيِّعيه فى الأشواك والصخور بين السعالى والغيلان !

أجيبوا يامُشَرِّديه فى أودية التّيه ، وخاطفيه من أحضان أبيه ، وقاذفيه إلى قرار اللعنات والطرد والحِرمان والفقد الذى ليس معه عزاء ! .

أجيبوا فإنى لا أفقه ماترمون إليه إلا أن تكونوا قطاع طرق الرحمة ، ومطاردى الإنسانية من رحاب سعادتها ، ولن تكونوا بذلك إلا شياطين لا تظهر فى أثوابها ، أو مأجورين للشياطين تدفع لهم أجورهم من الشهوات ! .

أجيبوا يا صانعى الألفاظ ، ومبلبلى خواطر الناس ، وجالبى شقائهم الدائم بالعمى عن كل شىء يضىء ، والصّم عن كل شىء يصيح !

لقد جعلتم الناس يبحثون عن سعادتهم فيما وراء قلوبهم ، ولذلك يهدمون كل شىء ويقتلعونه من مكانه ، ويفتحون كل مغلق كما يفعل الذى يبحث عن متاع ضائع ثمين أَليم الفقد . . .

كل هذا الجموح والغرور لأنهم اخترعوا طائرة وسيارة وراديو وتلغراف .. لذلك أغضوا عن البعوضة والبعير ، ونسوُا خالقهما .·. نسوا الذى ابتدع الآلة العجيبة التى فى رءوسهم وهى التى اخترعت هذه الأعاجيب التى بها يفتنون .

يقول توماس كارليل مامعناه « إن رفع اليد إلى أعلى لا يقل عجباً عن طيران جسم فى الجو ، وسماع الصوت من قرب لا يقل عجباً عن سماعه من آخر الأرض » .

فالمبدأ المعجز موجود منذ الخليقة يراه كل فكر يدرك الحق الأصيل ولا ينساه إذا رأى محاكاة له .

* * *

والإيمان وصاية واسعة المسئولية على كل شيء ؛ فهو رعاية للنفس والقربى والرحم والوطن والإنسانية والحيوان والجماد . . . نعم الجماد ، فله على المؤمن أن يضعه موضعه فى الفكر والعمل ، وأن يحمّله ويسخره ويتأمله ويسبغ عليه من حياته هو . . .

فالمؤمن ليس فرديا أنانياً ضيقاً ، وحياته ليست له وحده ، وأبناؤه يَلِدُهم لجيش المبدأ الذى يعمل له ، وهو متحرر من سلطان كل شيء ، لأن معه كل شيء . . إذ كان على موعد مع الكون كله عند ملتقى كل شيء .. عند الله الذى إليه تصير الأمور . ! فله عين ممتدة البصر وراء الذى يفنى منه هنا ، تسير معه وتعرف مقره النهائى .

فأيّما سموٍّ وغنًى وخلود للنفس يشبه هذا فيما بين يدى عشاق الخلود من الفنانين والعلماء ؟ ! فمن يبتغ الخلود فليلتمسه عند ملتقى كل شيء ، وكل ظل ، وكل ضوء وكل صوت ! ! .

* * *

ما بين المؤمن و بين الإلٰهية شيء من الحب لا يقاس معه شأن آخر من شئون الحب فى قليل ولا كثير . . . لأنه يدرى أن أباه الحق هو واهب الحياة وحافظها ، والقائم عليها ، والمنظم لآلاتها فى جسده ، وليس لأبويه الجسديين من ذلك الحب شيء إلا لأنهما سبيل شعوره بالرحمة والحب من الإلٰه الذى أوجده ليتمتع بأفانين الدنيا وأفانين حياة النفس ، وإنه ليرجع إلى الله فى كل أمر سارٍّ أو ضارٍّ بفرح طفلٍ أو حزنهِ .. وإنه ليدرى أن لضحكه

ودموعه صدى عنده . . وشتان بين معتقد هذا ومحسّه ، وبين من يرى نفسه وحيداً بين معارك الدنيا وحرب الشر والخير ، ليس معه عين إله يرعاه ! .

إن الثانى يدخل إلى الدنيا ويراها داراً من غير صاحب يملكها ويتعهدها ويؤنسه فيها ؛ فهى عنده سُدًى ، ليس لأحد فيها حرمة إلا بمقدار قوّته ، فيأخذ منها جهرة إن وَسِعه الجهر ، وخِلْسة إن أحسّ القهر . . لا حدود أمام أطماعه ، وأطماعه غير محدودة ، والإنسانية عنده قطعان آبِدَة متوحشة ، لا رحمة بينها ولا حب إلا فى نطاق الضرورة الغامضة .

وأى شقاء للنفس إذا لم تعرف أن للدنيا مالكا ! إنه شقاء يوحى بالجريمة فى صور فظيعة فاجعة كجريمة الذى أحرق « روما » بأهلها ، وكجرائم « جوزيف فوشيه » وزير نابليون ، الذى استعمل كل ذكائه فى التنكيل والتخريب ، وخدع نفسه إذ كتب على قبره « الموتُ نومٌ أبدىّ . . » ، وكجرائم الفوضويين والمعطِّلين والدهريين الذين يرتكبون كل شنيعة على حساب العدم . .

***

لا يدخل قلبَ المؤمن شىء إلا بعد استئذان إيمانه ، وما عرفتُ سلطاناً لشىء على النفس مثل سلطان الإيمان كما غرسه وعمّقه القرآن . . وإن النفس لتجابه كل شىء به ، فإن كان من عوامل البطش استمدت من جبّار السموات مدداً عليه ، وإن كان من عوامل الرحمة استمدت من الرحمن صوراً من رحمته .

وإن المؤمنين ليصبرون على غزو الشبهات لعقولهم ولا يدَعُونها تصل إلى قلوبهم . وهم أكثر الناس انقذافاً بالشبهات ، لأنهم ليسوا أغبياء ولا عجزة

مغفلين عما فى الدنيا من الأحاجى والألغاز؛ فعقولهم دائما فى احتكاك مع حقائق الحياة والآراء والمذاهب والأديان، وفى تعجب دائم قد يصل بهم إلى درجة الحيرة «ولم تزل الحيرة سِمَة العارفين».

وَلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حيرة عَلَى ذَقَن أو قارعاً سنَّ نادم!

نهاية إدراك العقول عِقالُ وَغاية سعى العالمين ضلال
وَلم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وَقالوا
قالوا وَقُلنا دعاوى ما تفيد لنا إلا الأذى وَاحتجاجاً فى المداجاة

وإنهم ليعلمون أن الله راصدٌ لهم الفتنة ليصفّيهم، ولا يأخذ منهم إلى قدسه وشُرُفات عرشه إلا من يَثبُت على اتجاهه إليه، برغم حُجب الغيب الكثيفة من جهة، وبرغم أضاليل الحياة واختلاف بعض صورها فى ظاهر العقول القاصرة، وبرغم همزات الشياطين وَنزْغهم: «وَقل ربِّ أَعُوذُ بكَ مِنْ همزاتِ الشيَاطين وَأعوذُ بك رَبِّ أنْ يحْضُرونِ».

«إنَّ الذينَ اتقوْا إذَا مَسَّهُمْ طائفٌ مِنَ الشيطانِ تَذكَّرُوا فإذا هُمْ مُبْصرُون».

وإنهم ليكتمون ما عساه يصيبهم منها فى صدورهم، علماً منهم أنها أمراض طارئة فى فترة الشك الذى قد يصيب الباحث، كما أصاب الغزالى أبا الزهد والمعرفة، حتى «تكسرت عنه العقائد الموروثة» كما يقول فى كتابه: (المنقذ من الضلال)، فيرون تحصين الناس منها، حتى تبرأ قلوبهم ويهديهم الله إليه بعد جهادهم فيه، فيعرضوها بعد ذلك مع دوائها وبراهين كذبها وبطلانها، وعلماً منهم كذلك أنهم ما أوتوا علم كل شىء، وأن أساطين علم الظاهر لم يعرفوا إلى الآن ماهى المادة التى هى أول ما يدرك.. دع عنك

ما خفى فى عالم الآفاق وعالم الأنفس ، وعلماً منهم كذلك أن أكثر الناس ليسوا مثلهم متفرغين للتفكير فى الحقائق ومقابلة بعضها ببعض ، وإنما أكثرهم يأخذون الحقيقة أو الشبهة أو الأضلولة فيعيشون بها طول حياتهم ، وقد يموتون عليها إلا أن يتداركهم الله بمن يغسل قلوبهم من الشبه والأضاليل .

***

تلك ذخيرة الإيمان فى العقول والقلوب المؤمنة ، فأين منها تفريغ الإلحاد لقلوب أهله وعقولهم من كل معانى عزائها وهنائها وقوتها وخلودها ؟ أين منها مَلؤه إيّاها بكل معنى أثيم أو تافه أو فانٍ أو يائس ؟ يا بؤس من أراهم فارغى القلوب وقد صاروا الآن لا عدد لهم !

لقد ضاعوا لأنهم فقدوا معانى عزائهم . . .

وعندى أن كل ملحد يجب عليه إخلاصاً لإلحاده ، أن يكون مجرماً سفّاكاً أنانياً وحشياً حتى يحقق مقتضيات إلحاده . . فلا فائدة من الأخلاق والعلوم ما دام القلب فارغاً من الله . .

فما هو الحق وما هو الشرف لولا الله ! !

كل المعايير ساقطة باطلة مضطربة إذا لم تكن فى يده هو . . . !

كل الصدق كذب ، وكل الخير شر ، إذا لم يقله لنا هو . . . !

لعمر الحياة لو كان الإيمان كذباً لكان ألذ وأنفع من الصدق ! وما دام الإنسان يطلب السعادة والراحة فلماذا لا يطلبهما فى هذه المعنى ! لماذا يخطىء معنى دوامهما ؟ افرضوه كذباً . . . فهل برئت حياتكم من الكذب ؟ إنها مجموعة أكاذيب مات منها حكماؤكم غيظاً أيها الناس !.

إنه قياس أدركه الأقدمون واختار العقلاء منهم ماعبر عنه شاعرهم بقوله :

قال المنجم وَالطبيب ـِكلاهما : لاتبعث الأجسام .. قلت : إليكما
إن صحّ قولـكما فلست بخاسر أو صح قولى فالخسارُ عليـكما ..

وما دمتم تقيسون قيمة الشىء بالمنفعة ، فأيُّما شىء أنفع من آثار الإيمان فى حياتـكم ؟ إنه أعظم معنى جلب النفع للبشرية . وقصة تقدم الإنسانية هى قصة المؤمنين منها ؛ فإنهم هم الذين تسلموا قيادها مرحلة مرحلة ، إذ أحسوا الإيمان بالقيوم الأكبر ، فأحسوا الوصاية نيابة عنه على القطيع القاصر ، وحملوا أعباءه ونهضوا بها نهوض الذين لم يستول عليهم ضعف البشر ، فهم أولو العزم ، فى قلوبهم ذلك المعنى الحديدى الذى لا يُفْلِت منه شىء : وهو الصبر ! « الذين قال لهم الناس إن الناسَ قد جَمَعُوا لـكم فاخْشَوهم ، فزادهم إيماناً ، وقالوا حَسبُنَا الله ونعم الوكيل » .

فكل معانى شرف الإنسانية شُعَبٌ وفروع من تلك الأرومة ذات الأصل الثابت فى الأرض ، والفرع الذاهب فى السماء ..

ولذلك لو تغيرت فكرة الإلٰهية فيجب أن تتغير موازين الخير والشر . ولـكن فى ضمير الإنسانية إيماناً عميقاً بالخير كما هو ، وكفراً عميقاً بالشر كما هو ، وقد أدّى ذلك الوضع الفيلسوفَ الإنجليزى « باركلى » إلى أن يأخذ من هنا برهانه على أن هناك عقلا أعظم قد أقر موازين الخير والشر فى القلوب كما هما ، لأن الخير والشر عنده كذلك ..

نداء الزمان

الله والإنسان والحياة

— ١ —

« أما بعد » فهذا نداء الزمان ، ينادى به كلٌّ قائم فى الكون والنفس والحياة : —

جدِّدوا الإيمان بالله رب الوجود واهب الحياة كما وصفه القرآن القديم ، وحدَّثنا عن أعمال يده العلم الحديث ! .

فِرُّوا من طنين الشكوك والفلسفات الحائرة حول « الأول » الذى صَدرت عنه جميع الموجودات ، وأنشئت بتدبيره واختراعه ، ونسِقت بفنه وابتداعه ، ودامت بحفظه ورعايته ! .

واعلموا أن مفتاح الشر وباب الضَّياع هو الشك فى تلك الحقيقة الأولية العظمى ، والانفلاتُ من قيودها ، وهى قيود أمانات الحياة كلها ! .

ابدءوا حياتكم الفكرية بالحديث النفسى والبيانى عن تلك الحقيقة لتتعرفوا إلى جلالها وجمالها ولتطردوا عن أذهانكم وسْوسة الشر وشَوْشرة الباطل .

ابنُوا أساس حياتكم على صخرة تلك الحقيقة الراسية ، وقاعدتها العريضة الواسعة ؛ لتطمئنوا على أن وجودكم مستند إلى وجود أعظم ! وليس وهماً طائراً فى أجواء هذه القوى العمياء التى يَزْخَرُ بها الكون المادى .

اضربوا فى رِحاب الحياة ومَتاهاتها ، ثم عودوا إلى مكانكم الأول فى أحضان تلك الحقيقة ، مهتدين بالنور الذى يشع من مناراتها ، مستمسكين بالعرى الوثقى التى تمتد منها فى كل اتجاه إلى الغرقى والضائعين والشاردين ! .

املأوا وجودكم بهذه الحقيقة واجعلوها تستبد بخواطركم ؛ فستكونون سعداء بهذا الاستبداد ، لأنه استبداد أساس البناء بالبناء كله حتى لا يُحدِّثَ نفسه بالبعد عن دعامته الأولى ؛ فينهار ويذهب هباء تذروه الرياح . .

إنها حقيقة تبعث ذلك الشعور الصادق العجيب بالانسجام مع الكون كله ، وحسبكم به من سعادة ! وبالاستناد إلى دعائم الكون كله ، وحسبكم به من حماية ! وبالوصاية على أماناته كلها وحسبكم بها سيادة ! وبارتفاع العقل والقلب إلى مستوى رفيع يعلو بنظراتهما ويَرْحُبُ بخطراتهما ويَعْمقُ بأسرارهما ؛ وحسبكم بها كرامة ! .

وعلى الباحثين عن مصادر السعادة الفردية والجمعية ، وعن المَسَرّات الأصيلة فى الحياة ، أن يفتحوا عيونهم وعيون الناشئين فى الجيل الجديد على هذه الحقيقة دائماً ويمسكوا بعرى أسبابها ، ويعرفوها معرفة الرأى فى عقولهم والدم فى قلوبهم !

وعبثٌ لا طائل وراءه ، بل عناء ضائع ، بل جريمة مُوبِقة أن يتجه محبو الإصلاح بقلوب الناس إلى قطب غير قطب تلك الحقيقة ، فإنه لا حق ولا طهر ولا عدالة ولا أمانة إلا فى محيطها .

فلْيعرف ذلك الذين يدْعون إلى تأسيس حضارة نفسية جديدة ، ويريدون أن يلائموا بين سياسة الاجتماع الإنسانى والسياسة التى تتجلى فى الطبيعة كلها .

وحَسْبُ الإنسانية ما مضى من تجارب الشرود والجحود واللعب بالألفاظ ، والانطلاق وراء خداع الفلسفات الشاذة ، وافتنان أرباب « الترف العقلى » الذين يتشَهَّوْن كل غريب من الآراء يقدم إليهم على موائد الفكر ، كما يتشهى أرباب الترف المادى كل غريب يقدم إليهم على موائد البطون ...

— ٢ —

آمنوا بالإنسان الذى تحملونه فى أجسادكم ، وتستوحونه فى أفكاركم ، وتبادلونه ما صح وما فسد من شئونكم ! .

آمنوا به لتؤمنوا بالكون ورب الكون ... فلن يؤمن بهما من لم يؤمن به ؛ لأن عقله هو المنظار الذى ترون به كونكم وربكم ، فإذا أهدرتم قيمة الإنسان أهدرتم عقله ، فلم يبق لكم ما تدركون به وجودكم وربكم (*) ! .

ولكى تدركوا اللمحات التى تتراءى فى أعماق معنى الإنسانية ، حاولوا أن تتحرروا وتتجردوا وتخرجوا من نفوسكم ونوعكم ، وترصُدُوا الإنسان بعيون غريبة عنه ، وتروه بنظرات الملأ الأعلى ممن هم فوقه ، والملأ الأدنى مما هنَّ دونه ! .

فأيقظوه لنفسه ، ونبهوه إلى امتياز وضعه ، وأقرئوه ما يكتبه هو نفسه الآن على صفحة الأرض ...

واتركوا الجدليات القديمة حول قيمته ، فقد هَدَرت شقاشِقُها حين كان عاجزاً عن شق الطريق أمام فكره .

(*) ولذلك كانت قضية الإيمان بالإنسان هى القضية الفكرية الأولى التى لابد من إثباتها أولا ، كما بينا ذلك فى [أومن بالإنسان] .

اخرجُوا من غبار التاريخ القديم ، وافتحوا عيونكم على العالم كمخلوقين الآن ، تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر .

انظروا إلى الإنسان فى نِصابه الأعلى دائماً ، ولا تنظروا إليه فى حضيضه الأدنى ؛ فإن من طبيعة كل كائن حَىٍّ أرضىّ أن يكون له جِذْرٌ فى الطين والعُفونات ، أو أصلٌ فى الدم و بعض القاذورات . .

و إن النطفة التى خلق منها الإنسان أخلاطٌ وأمشاجٌ أخذت من العناصر الحادّة والقوى العمياء ، ما يجعله منها على اضطراب وابتلاء . . « إنّا خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبتَلِيه » و إن الفرد يحمل فى مجارى طعامه وفى أحْشائه أوضاراً وأقذاراً بجسة تشمئز منها نفس حاملها ، ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه والرأس الذى يحمل الشخصية وقوى الفكر . . .

فلا تنظروا دائماً إلى الذين هم فضلات فى جسم الإنسانية وتتخذوا منهم « مَقْطع » النظر إليها جميعاً ، فيحملكم ذلك على التشاؤم والسخط والشك فى الخير والجمال الذى فيها .

هم كالثمار الفجّة أو المعطوبة ، عَطِبَت وتلوثت ، لأنها سقطت من ضعف روابطها بفروع الشجرة التى تسمو . .

إننا نحمل أقباساً منيرة مطهَّرة من عالم الحق والطهر والجمال ، ولكنها وضعت فى أجسامنا ، تلك الأوعيةِ الطينية السريعة التعفن ؛ فمن الناس من يدُوم على تطهير وعائه وصقله حتى يستحيل إلى زجاجة شَفيفَةٍ رائعة تساعد ذلك القبس على السطوع والإشراق .

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهذيب ، فيظل مُعْتماً و يحول بين ذلك القبس و بين السطوع الكامل . . .

ومنهم من يضع فى ذلك الوعاء ما يزيده عَتَمة وكثافة تَطْغَى على ذلك القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام . . .

فلأجل النور ! نَبِّهُوا كل مصباح إلى رسالته ، وَحُولُوا بين الظلام وبين زجاجته . . .

ولا تحملنَّكم حياة الظلام الراهن على أن تتشاءموا وتسخطوا وتحطموا ما بقى لكم من مصابيح ، فتعيشوا فى عمياء نهارُها كليلها . . .

— ٣ —

صدِّقوا الحياة وكذبوا المتكلمين الذين يعارضونها ، ويزعمون أنهم أصدق منها ، ويُغْرُون الناس بسبابها وتحقيرها ، ويملأون قلوب فتيانها الناشئين بأحاسيس السخط عليها قبل أن ينالهم منها ما يبرّر ذلك ، ويخلقون لأنفسهم عوالم خيالية منفصلة عن الحياة ومنطقها العملى ، ويقذفون بكلمات جوفاء على كلمات البداهة والطبع فيحجبونها عن أنظار القاصرين الذين ينظرون نظراً سطحياً ، فيذهبون ضحايا الانخداع بزخارف القول الغَرُور ، وأوهام الفكر الشَّرُود . . .

والحياة بالغة الحجج ، مفحِمة المنطق ، جارفة التيار ، تدفع الإنسانية دائماً إلى مجراها الذى يَعُبُّ عُبابه ، وتتضرَّب أمواجه على رغم هؤلاء المتكلمين المتشائمين . فلا سبيل إلى الوقوف فى وجهها وتحويلها ، وكل من زعم أن منطقه أصدق من منطقها فله ماشاء من زعمه . أما أبناء الحياة الذين سادوا فيها فلا يعرفون إلا وجه أمّهم الواضحَ القسمات المعروف السِّمات . . .

واعتقادى أن الذى جنَىٰ على التدين أن الناس حسبوا منطقة الدين منفصلة عن الإحساس العام بالحياة ، وزعموا الدين لغير الحياة الدنيا ، فجابهوها بقلب

مُوَزّع وفكر حائر بينهما ، وحاول المتعبدون منهم الفِرار من الدنيا قبل أن تستوفى ضرائبها منهم ، ويستوفوا تجاربهم فيها ، وظنوا العبادة فترات انسلاخ من الحياة بالطقوس والرسوم وما إليها من المظاهر التى هى مواقف «استعراض» للمؤمنين لا أكثر ... مع أن لُبَّ العبادة هو أن تشعر دائما فى نفسك[1] بفيض الحياة : ذلك الشأن الإلهى العجيب ! وأن تتيقظ لفعله فى ضربات قلبك ، وخطرات فكرك ، ونبضات خلاياك ، وهمسات نفسك ، ولمحات عينك ... وألا تنسى أنك دائما تتلقى ذلك الفيض من ينبوعه الأعظم إلى أجل . . . فيحملك ذلك الشعور الملازم على أن تحافظ على وجودك الذى هو مظهر تلك الأسرار ومِشكاة تلك الشعلة ، فلا تعطلُ قوة من قواه ، ولا تطمس رسماً من رسومه ، ولا تقعد به عن الزحام فى مجالات العمل الكريم الذى يُذكى شعلة الحياة ويلقى إليها حطباً يَشُبُّ ضِرَامها . . .

والوجود الإنسانى الكامل الصحيح هو الذى ينتج الشعور الصحيح والفكر الصحيح ، والخلق الصحيح ، والعمل النافع الدائم ؛ وهو الذى أنتج وسائل التغلب والسيادة على عقبات الطبيعة ، والقدرة على تمهيد الأرض للإنشاء والتعمير ، وتخفيف المشقات والآلام ؛ وهو الذى حقق تلك « الكرامات » العجيبة الدائمة التى أكرم الله بها الإنسانية على أيدى علمائها الذين جعلوا همهم البحث عن أسرار صنعة الله وقراءة كلماته الظاهرة والباطنة فى الآفاق وفى الأنفس ومحاكاة نماذجها .

وإذا كانت كرامات الأولياء أمراً مؤقتاً خاصاً بهم ، فإن كرامات علماء الطبيعة أمر دائم مشاع للإنسانية جميعها .

---

(١) بينا هذا المعنى بيانا وافيا فى مقالات « الحياة صادقة » التى سننشرها بمجموعة عقب هذا الكتاب بمشيئة الله .

فلنعرف ذلك جيداً ، ليحملَنا على الاعتراف بصدق الحياة والإقبال على الـكشف عن أسرارها ، والإيمان بأن جميع أحلام الإنسانية فى السيطرة على شئون الأرض ستحقق قبل انقضاء رحلتها على سطحها . . .

وينبغى ألا نخلط بين شرور الإنسان وآلام الحياة التى لا دخل للإنسان فيها حين يتحدث عن صدق الحياة ، فإن الحياة من يد الله بريئة صحيحة قليلة الشر والألم ، ولـكن الذى يضاعف الشر ويمحو بشاشة الحياة هو الإنسان القاصر الجاهل الناشىء فى أحضان السفاهات والجرائم والإهدار لقيمته . . ومن هنا وجب الإيمان بالإنسان وإيقاظه لنفسه أولاً على نحو ما قدمناه فى هذا الصدد لـكى يقلّ شره ، وينمو خيره ، فيظهر وجه الحياة الجميل البرىء ، ويظهر وجه الإنسان المنشود ، ويظهر وجه الله الرحمن ذى الجلال من خلالها ؛ حتى يراه كل فـكر جحود وقلب كَنُود !

« سَنُرِيهم آيَاتِنَا فى الآفاقِ وفى أنفُسِهِمْ حَتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّهُ الحَقُ ! »

وتلك نبوّة الحياة الصادقة ، يبعثها سر الإنسان الذى نفخ الله فيه من روحه ، وجعله خليفة فى الأرض ، ليظهر غيوبها ويثير دفائنها ، ويَلْبَس برُوحه الحية موادَّها الميتة فيجعلها تحيا بروحه وتفكر بعقله وتخطو بسرعة فـكره !

« وإذْ قُلْنَا لِلمَلَائِـكَةِ اُسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا . . . »

وذلك هو حديث الزمان يرسله فى أذن الإنسان ، خِلال صيحات وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة والطائرة ، وبين دوىّ الآراء والمذاهب الهدامة والفلسفات الشاردة الحائرة . وأعتقد أنه نداء يجب أن يكون عنواناً لتجديد الدعوة الدينية فى هذا العصر الحائر المتهافت ، وأساساً فـكرياً صالحاً لوصل العقول والقلوب بأعماق الـكون ولباب الإنسانية وصدق الحياة !

« واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ » .

الفهرس

نحو أساس روحى للحضارة المادية

سلسلة ذات خمس حلقات يحاول بها المؤلف أداء واجب من واجبات الفكر الإسلامى الحديث فى التمهيد الفكرى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية المنشورة

١ — أومن بالإنسان !

نظرة جديدة إلى الكون من خلال نظرة جديدة إلى الإنسان . (مكتبة النهضة المصرية)

٢ — العقل المؤمن

٣ — الحياة صادقة !

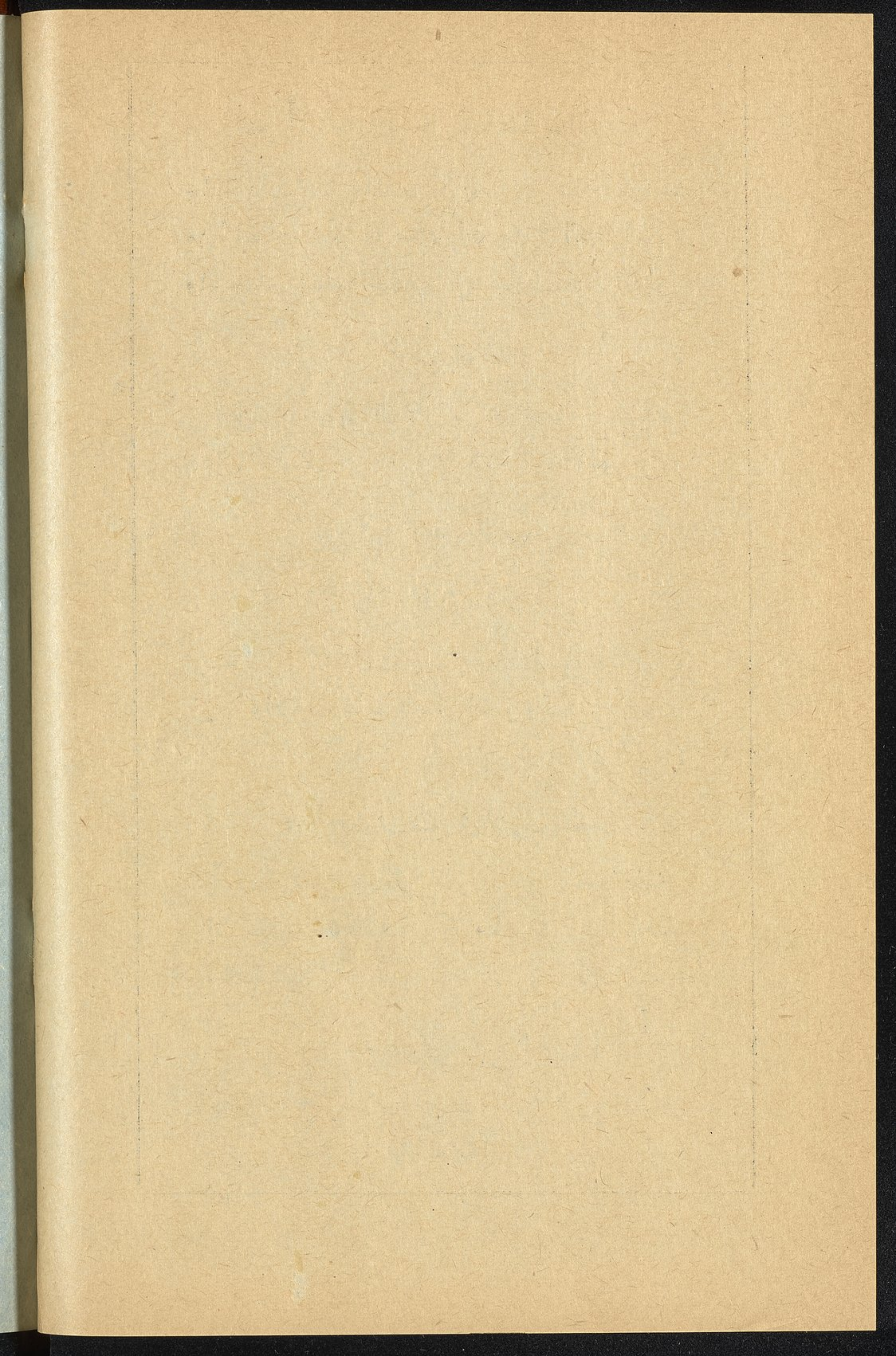
دعوة إلى التفاؤل فى فهم وجهات الحياة والتعرف إليها والإقبال عليها بالعمل المثمر والكفاح الصابر (تحت الطبع)

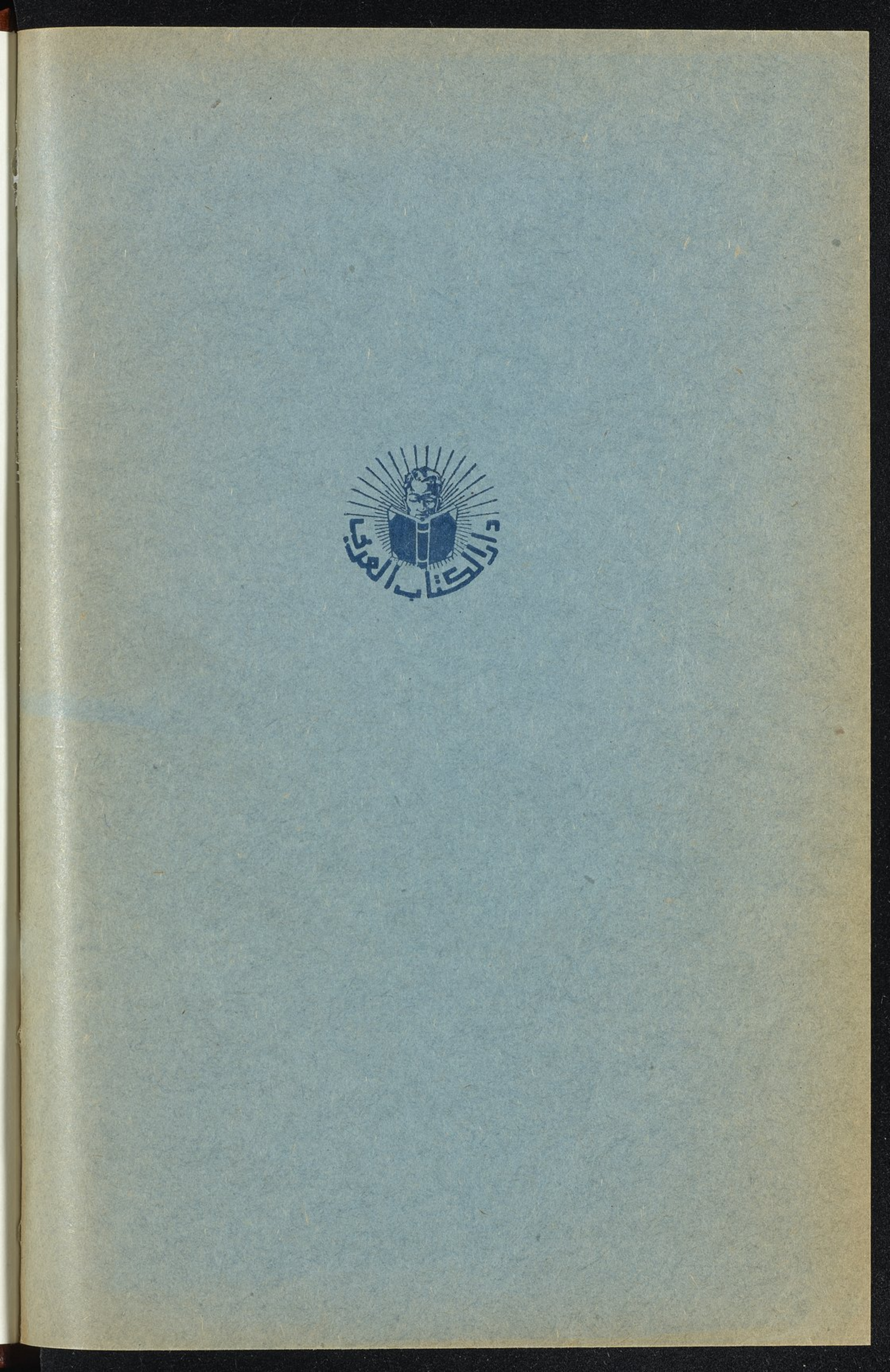
٤ — صلوات فكر فى محاريب الطبيعة

تأملات عقلية وخطرات وجدانية ترجع الإنسان إلى الطبيعة وتوقظ فكره إلى أعاجيبها واجتلاء جمالها والتعبد لبارئها (تحت الطبع)

٥ — محمد يرجع !

نهضة الروح الإسلامى الحديث لمشاركة الروح المسيحى والروح اليهودى إقامة الحضارة المنشودة (تحت الطبع)




دار الكتاب العربي

